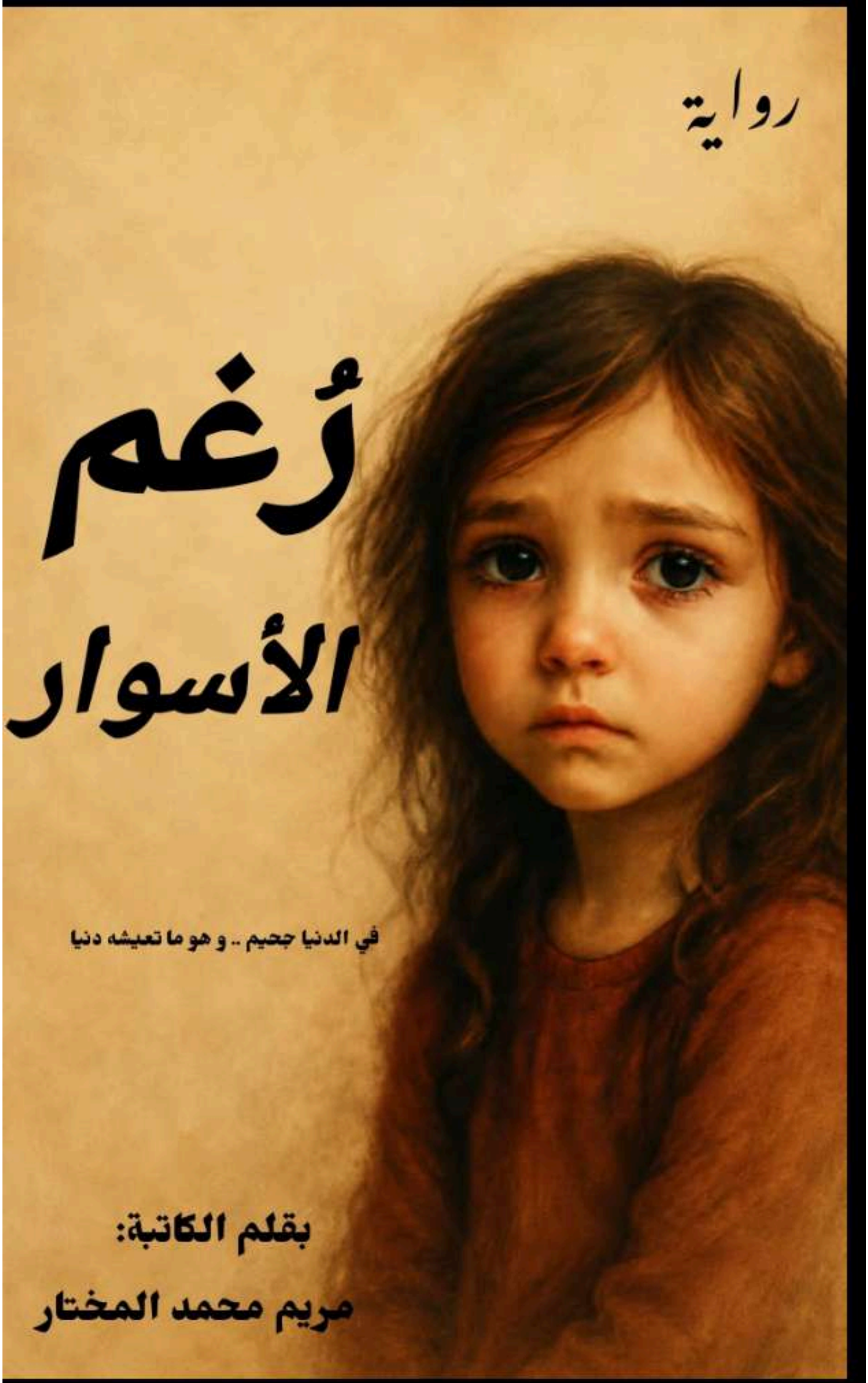
رواية

رُغم الأسوار



في الدنيا جحيم .. و هو ما تعيشه دنيا

بقلم الكاتبة:

مريم محمد المختار

رغم الأسوار

لقد نسجتُ حروفًا من شرايين قلبي
لأحيك بها سطورًا، لعلها تلامس تلك
المضغة المقيمة يسار صدوركم.
«فمن قطرات عرق تجاربي أسطر».

شكر

للـ PDF الذي أتاح لي القراءة دون مال،
ولصديقتي التي أرَتني جمال عالم القراءة.

إهداء

إلى كل من يرسم هدفًا نصب عينيه،
ويلتمس في قلبه إصرارًا لتحقيقه.

في الدنيا جحيم... وهو ما تعيشه "دنيا".

لطالما علمنا أن للقمر أسوارًا تقف
حاجزًا دون الوصول إليه، إلا أن ذلك لم
يزدنا إلا إصرارًا على اكتشاف ما
يختبئ وراء تلك الأسوار...
لكن ماذا إن كانت أسوار قمري هي
الحزن، بشتى أصنافه؟!

ملاحظة: عين عتيق هي القرية، وتمارة هي المدينة، وليس العكس (مغالطة).

في إحدى زوايا هذا العالم، حيث تشرق الشمس كل يوم حاملةً في أشعتها آمالًا متجددة،
حيث يُنسج من قطرات الدموع سلاسل أحلام مزدهرة،
ومن خيوط البساطة نوادر متلألئة،
حيث يكسر الشغف والعزيمة حدود الطموحات،
حيث يتجذر أناس صنعوا من أنفسهم دُررًا وجواهر بطباعهم، ليرصّعوا بها عالمهم الصغير...
أناس آمنوا أن مصائبهم تحمل في طياتها بشرى بجمال ما يختبئ وراءها من فرح،
أناس تعاضدوا فيما بينهم ليكونوا أغصانًا لشجرة واحدة مهما اختلفت أعراقهم.

تجذّر إسلام وسط أولئك الناس، فلم يفسحوا له المجال ليحزن على وفاة عائلته، إذ غمروه بمقدار من الحب والحنان جعله يعتبرهم أكثر من عائلة بالنسبة له.

بينما كان الشعور بالغربة وسط أفراد العائلة يستوطن قلب يقين؛

حيث كانت يتيمة الأب والأم، ولم يكن لها سوى أختها آسية، التي لم تكن يومًا مأوىً لها.

عاشت يقين مع أختها آسية فترة طويلة، كادت تكون أبشع فترات حياتها.

حاولت بأقصى جهدها تجاهل تصرفات أختها في تلك الفترة، نظرًا لكونها أختها الشقيقة التي لم يبقَ لها سواها، فحاولت الصبر على سوء معاملتها والتعايش معها...

إلا أن طفح الكيل، ونفدت طاقة تحمّلها.

قررت أن تضع حدًا لتلك المعاناة، وأن تترك بيت أختها، بل وتلك المدينة بأسرها، قاطعةً على نفسها عهدًا بعدم العودة إلى ذلك المكان حتى آخر يوم في حياتها.

شاءت الأقدار أن تكون قرية عين عتيق هي وجهة يقين، التي قررت عيش حياتها الجديدة بين أحضانها، مبتعدةً عن كل ما تعرضت له من أذى في بيت أهلها من قبل أختها.

وصلت يقين إلى القرية ناويةً الإقامة مبدئيًا مع صديقة طفولتها أسماء، التي افترقت عنها منذ سنوات عديدة حين ذهبت لإكمال دراستها في المدينة.
وحين وصلت إلى بيت صديقتها، استغربت من إقبال أغلب نساء القرية مرحِّبات بها، رغم عدم إعلامها لصديقتها بموعد قدومها...
لتكتشف لاحقًا أنها عادة متعارف عليها في القرية، حيث تجتمع نساؤها في بيت إحداهن كل يوم ثلاثاء. وقد صادف يوم قدوم يقين يوم استضافة أسماء للنساء في ذلك الثلاثاء.

تعاملن معها بلطف مبالغ فيه، إذ أخذت كل واحدة منهن تعرض مساعدتها في حال احتاجت إلى أي شيء.
وجدت في البداية صعوبة في التأقلم معهن، ثم أجبرتها طيبتُهن على مجاراتهن في أحاديثهن.
استمرت أحاديثهن فترةً شعرت فيها يقين وكأنها عاشت وسطهن أعوامًا طويلة، ولم يقطع تلك الأحاديث سوى طفلٍ قاطعهن سائلًا عن المرأة المسماة رنا كي تعود لرضيعها الذي اشتد بكاؤه.
اضطرت المرأة للمغادرة كعادتها، فأثار ذهابها انتباه البقية إلى مدى تأخر الوقت، فغادرن واحدة تلو الأخرى، ولم يبقَ سوى يقين وأسماء، التي تفرغت حينها للترحيب بها.

أسماء: أعتذر، لقد نسيت تمامًا أن اليوم الثلاثاء، فلم أرحب بك كما يجب.
يقين: لا عليك، لقد أحببتهن كثيرًا على العموم. لم أركِ منذ سنوات، واشتقت لك كثيرًا... ألن تعانقينا بعد كل هذا الفراق؟
عانقتها ثم بدأتا تتجاذبان أطراف الحديث، وسألتها أسماء عن سبب زيارتها.
يقين: في الحقيقة... أنا... أنا...
صمتت لحظة، ثم قالت:

كان كل شيء على ما يرام قبل فترة.
كنت أعيش مع والديَّ بسعادة رغم
اختلافي الدائم مع أختي، لكن بعد
وفاتهما لم تعد تصرفاتها تحتمل.
تفاقم جشعها، وكثرت الشجارات بيننا،
فلم أعد أستطيع التحمل.
سئمت تلك المشاجرات، وسئمت محاولة
إثبات براءتي لها من أتفه الأشياء.
لم تكن أختي طيبة يومًا، لكن بعد وفاة
والدينا... حاولت جاهدة التمسك بآخر
من تبقى من عائلتي، لكن دون جدوى.
أخذت تبكي ثم أكملت:
– لكن دون جدوى...
أخذت أسماء تربت على كتفها مواسيةً
إياها قائلة:

– لن أسمح لك بأن تقولي إنكِ وحيدة بوجودي، أنسيت أنني أختك أيضًا؟
– أعتذر... جئت إليك فجأة دون سابق إنذار لأعكر صفو حياتك بمشاكلي.
– إن قلتِ شيئًا كهذا مرة أخرى فسأعيدك إلى حيث كنت... ما فائدة الأصدقاء إن لم يشاركوا همومهم ويحاولوا تخفيف الألم عن بعضهم البعض؟
– وإن كان... سأحاول العثور على عمل في أقرب وقت ممكن، فكما تعلمين لا يمكنني الاعتماد على أحد دون أن أتعب على نفسي.

– أعلم ذلك، لكن دعينا من هذا الأمر الآن. غدٌ يأتي بالخير إن شاء الله.
في صباح اليوم التالي، أصرت يقين على البدء في البحث عن عمل ترتب به أمورها، متجاهلة مؤهلاتها وما توصلت إليه في دراستها، إلا أن أسماء لم تسمح لها بذلك، وأصرت أن يكون يومها الأول معها يوم استجمام لا مشقة.
لم تجد يقين أمام ذلك النقاش سوى الموافقة على الذهاب إلى الشاطئ.
صحبتها أسماء إلى شاطئ القرية، وهو مكان التنزه الوحيد لسكانها. ورغم رفض يقين للنزهة في البداية، إلا أن شيئًا في أعماقها كان بحاجة إلى محادثة شخص كأسماء ليعيد إليها ذكرى الأيام الخوالي التي قضتها معها قبل أيامها السوداء مع أختها، التي ساد الحزن كل لحظة فيها.

كان حديثها مع أسماء واسترجاع
ذكرياتهما معًا شيئًا أنعش قلبها بعد الكمد
الذي أصابه في الفترة الأخيرة.
جمعتهما أحاديث طويلة، كانت تنقلب
إلى ضحك من حين إلى آخر.
أخذت أسماء تحدث يقين عن "أخرق"
القرية فور رؤيتها له، فلم تصدق يقين
ما سمعته عنه حتى رأته بأم عينها.

أطل من بعيد رجل أصلع في منتصف
العمر، مرتديًا شعرًا مستعارًا. وما إن
لمحته أسماء حتى أشارت نحوه مثيرة
انتباه يقين، ثم طلبت منها مراقبته لتتأكد
من صحة ما قالت عنه.
لم تدم مراقبتهن سوى لحظات، حتى
سلبت تيارات الرياح القوية الشعر
المستعار من رأسه.

أخذ يركض محاولًا التقاطه قبل أن يرتطم بموج البحر، لكنه لاذ بالفرار تاركًا شعره المستعار خلفه، بينما أغرقته الموجة التي ما لبثت أن عادت لتكسيه بالرمال.

أثار منظره ضحك من حوله، واستمر النظر إليه يشغل انتباههن حتى نسين وجبتهن التي صارت من نصيب الموج أيضًا.

استمرت ضحكاتهن رغم ذلك، ثم اقترب منهما ذلك الرجل وعرض مشاركة وجبته معهن، لتكون تلك الحادثة بداية تعرفهن على إسلام، الذي شاء القدر أن يكون سببًا في إيجاد عمل ليقين.

عرض عليها العمل لدى جارهم الذي كان يبحث عن عامل يساعده في محل الخضروات خاصته. مع مرور الوقت، تعززت علاقة يقين مع سكان القرية، كما تنامت علاقتها مع إسلام حتى وصل الأمر بينهما إلى الزواج.

تزوجت يقين من إسلام وأنجبت ابنتها دنيا، التي حاولت جاهدة أن تعطيها أكبر قدر ممكن من المعلومات إيمانًا منها بأنها ستحقق ما لم تتمكن هي من تحقيقه.

كانت دنيا ذات صدر رحب لتلقي تلك المعلومات، فقد جعل ذكاؤها منها الوعاء المناسب لتسكب فيه يقين الكثير مما تلقته في دراستها. وبسبب ذكاء دنيا، تعلمت الكثير من أمها في سن مبكرة، رغم تدريسها لها أغلب الوقت الذي يجمعهما بعد أشغالها الأخرى، إلا أنها لم تسمح لذلك أن يحرم الطفلة من قضاء وقت ممتع مع أمها دون ضغط الدراسة. فكانت في ليالي منتصف الشهر الثلاث، حيث اكتمال القمر، تجلس معها هي وأبوها إسلام ليوفرا لها الجو العائلي الذي تحتاجه، ويقصان عليها بعض القصص تحت نور البدر.

في إحدى تلك الليالي، وهي بنت الثماني سنوات، كانت قصة بداية تعرفهما على بعضهما هي ما اختارا قصه عليها، ليسرق الحديث كل منهما ويغرق في ذكرياته دون أن يلاحظ أن دنيا لم تعد مستيقظة للاستماع، فقد غرقت في النوم منذ فترة.

ضحك كل منهما على منظرها، ثم حملتها يقين إلى سريرها لتهنأ بنومها وسط حضنَي أبويها، عالمها الصغير الذي لم تقلل البساطة من جماله.

دنيا: طفلة بعمر الثماني سنوات، ذات شعر يمزج ما بين الأحمر والبني، وبشرة ناصعة البياض. يكمن نصف جمالها في براءة عيونها العسلية الواسعة ذات الرموش الكثيفة. لم تتجرع قساوة الحياة بعد، وينعكس نقاء قلبها على ملامحها البريئة.

تعيش وسط عائلتها الصغيرة، مكوّنة عالمها الخاص معهم، مكتفية به. يبتسم أبواها في وجهها مهما قست عليهما الظروف.

يتجه والدها مع كل إشراقة شمس إلى محله لبيع اللحوم، كما تتجه أمها إلى محلها لبيع الخضروات، ثم تتجه هي إلى مدرستها في الوقت ذاته.

أما حلمها، الذي ولسبب تجهله توطن قلبها منذ نعومة أظافرها، فكان امتهان مهنة الطب، ويتفاقم هذا الحلم بداخلها يومًا بعد يوم.

ثم يعود كل منهم في ظهيرة اليوم ليحتضنهم منزلهم المفعم بالحنان مجددًا، يعانقون فقرهم، ويزينون وجوههم الشاحبة بابتسامتهم الراضية.

هكذا يعيشون حياتهم، مواسين أنفسهم بأنهم مع بعضهم، تحفهم السعادة، فلا يلقون بالًا لحالهم المادي، ولا ينقص فقرهم من تلك السعادة شيئًا.

في ظهيرة أحد الأيام، عادت دنيا من مدرستها وعصافير بطنها تزقزق جوعًا، فلم تجد في المنزل سوى أبيها الذي أخبرها أن أمها ستتأخر في العودة. أصرت عليه أن يطبخ لها ما يسد جوعها. حاول جاهدًا إقناعها بأنه لا يجيد الطهو، لكنها أبت أن تقتنع، فلم يجد بدًا من محاولة الطهو من أجلها رغم عدم إجادته لذلك.

قرر إعداد رغيف خبز بمساعدتها، اعتقادًا منه أنه سيكون سهل الإعداد حتى وإن لم يكن أي منهما يجيد طبخه.

بدأ بسكب كمية معتبرة من الدقيق كي تكفي الرغيف للجميع، ثم أضاف كمية من الخميرة والقليل من الملح والسكر، ثم أسرف في سكب الماء.

لاحظ أن قوام العجينة لم يكن مناسبًا، وأنها تحتاج إلى المزيد من الدقيق، فكان يطلب من دنيا مناولته المزيد من الطحين من وقت لآخر، ثم يسكب الماء مجددًا، وكلما سكبه تناولت دنيا المزيد.

فأخذت العجينة تتفاقم بين يديهما وبدأت تخرج عن السيطرة، فتحولت إلى كومة عجين ضخمة حملوها بصعوبة بالغة، ثم بالكاد استطاعوا إدخالها إلى الفرن، لكنهم لم يتمكنوا من إغلاقه، فتركوه دون إغلاق، وزاد إسلام درجة الحرارة ظنًا منه أن ذلك سيجعل الرغيف يجهز بسرعة أكبر.

وما إن التفتوا، وحبيبات العرق تتدحرج
على جبين كل منهما، حتى فوجئوا
بالمطبخ قد تحول إلى فوضى عارمة؛
الصحون مبعثرة في كل مكان،
والأرضية اكتست بالدقيق الذي بلله
الماء.
أما حالهم فلم يكن أفضل، فقد كانوا في
حالة مشابهة.

ما لبثوا أن انحنوا لترتيب المكان حتى تسلل إلى مسامعهم صوت صرير باب المنزل وهو يُفتح. علم إسلام أن يقين هي من فتحت الباب، فنظر إلى دنيا نظرة عتاب لأنها وضعته في ذلك الموقف، ثم أسرع متجهًا إلى الردهة حيث يقين، وسرعان ما لحقت به دنيا. استغربت يقين من حالهما فور رؤيتهما، فأخذ كل منهما يسرد ما حدث مبررًا ما تسبب به، ولم يذكر أي منهما أمر الفرن، حتى وصلا إلى فقرة وضعهما العجينة بداخله.

التفت كل منهم إلى الآخر، ثم ركضوا باتجاه المطبخ، فإذا بالرغيف قد تحول إلى فحمة ضخمة محترقة.
ضحكت يقين عندما رأتهما يحملان تلك الفحمة بين أيديهما والاستياء بادٍ على ملامحهما. داروا بنظراتهم متمعنين في الكارثة التي سبباها، ثم شاركوها الضحك، فتعالت ضحكات الجميع على ذلك الموقف، ليردد صدى المنزل تلك الضحكات.
كانت تلك ذكرى لا تُنسى جمعت دنيا مع أهلها، ليتحول ذلك اليوم من طهي رغيف خبز إلى طرافة حفرت في ذاكرة كل منهم.
مرت الأيام، والسعادة لا تزال تغمر قلب كل منهم.
عادت ليالي البدر وحكايات يقين لابنتها دنيا.

في ليلة اكتست فيها السماء بمنظر النجوم الساحر الذي توسطه البدر المكتمل، كانت دنيا ممعنة النظر في السماء، ورأسها في حضن أمها التي تمسح عليه بحنو.

نطقت دنيا سائلة وهي محتضنة لعبتها الأرنب المفضلة لديها:
– ماما... هل باستطاعتنا الوصول إلى القمر؟
أجابتها قائلة:
– أجل، يمكننا ذلك، لكن الأمر ليس بالأمر السهل.
نهضت دنيا من مكانها ثم قالت، جالسةً مقابلة لها بلهفة:
– كيف ذلك؟
لاحظت يقين اهتمامها، فأرادت الاستفادة من ذلك، فاسترسلت قائلة:

إن أراد أحدهم الوصول إلى القمر، فلابد له من تخطي أسواره، وإن أراد تخطي أسواره، فلابد له من أن يتحمل صعوبة ذلك.

بدت علامات عدم الفهم على وجه دنيا، فاستطردت أمها قائلة:

– لماذا تودين الذهاب إلى القمر؟

أجابت دنيا ببراءة:

– أريد أن ألعب مع دميتي هناك، فالمنظر ساحر و....

قاطعتها أمها قائلة:

– بالضبط، أنتِ تودين الذهاب إلى هناك لأن المنظر ساحر، وكل ما كان هدفك بهذا الجمال كان الوصول إليه أصعب، ووجدت في طريقه عقبات أكثر. هل فهمت الآن لماذا الوصول إلى القمر صعب إلى هذا الحد؟

صمتت دنيا لفترة ثم قالت بعد تفكير:
– وهل يمكنني أخذ أرنوبتي إلى هناك؟ فهي ضعيفة ولن تتحمل.
– قد ترينها ضعيفة الآن، لكنها إذا وقعت في مشكلة فلن يكون لها حل غير مواجهتها، وعندها سترينها قوية كما لم تريها من قبل.
لم يعجب دنيا ما قالته أمها، فارتمت في أحضانها قائلة:
– لم أعد أود الذهاب إلى القمر، سأبقى هنا في حضنك ولن أتركك.

فهمت يقين أن ابنتها لم تفهم الدرس الذي كانت تود تلقينه، أو لم تكن مستعدة لفهمه، فرفعتها من حضنها واحتضنت وجهها بين كفيها، ثم نطقت قائلة بحنان:
– حبيبتي، يجب أن تعلمي أن الصعوبة ليست في أن نحلم، بل في تحقيق أحلامنا. من امتلك الشجاعة ليحلم، فعليه أن يمتلك القوة لتحقيق ذلك الحلم.
كانت يقين ليلتها تحاول تجهيز دنيا لما ستواجهه، وكانت مدركة أن حلمها بامتهان الطب لن يكون سهلًا في قرية كقريتهم، وإن أرادت تحقيقه فلابد لها من امتلاك عزيمة كافية للتغلب على الصعاب.

كانت دائمًا تحاول تلقينها دروسًا كهذه، لكن حديثها في تلك الليلة بدا لدنيا أكثر حدة مما سبق، فبقيت تفكر فيما قالته لها قبل أن يسرقها النوم وينتشلها من ذلك التفكير.

دنيا:

بقيت أفكر فيما قالته أمي في تلك الليلة، وسؤال واحد لا يفارق ذهني:

"هل سأكون أنا تلك الدمية التي فرضت عليها الظروف أن تكون قوية؟"

أتساءل هل سيكون طريقي شائكًا كما كانت تقول...

انشغل ذهني بتلك الأفكار قبل أن يغرقني النوم في سباته.

عدتُ في أحد الأيام حاملة نتيجة امتحاني، فوجدت أمي في المنزل تستعد لإعداد الغداء.

فرحت عندما أخبرتها بحصولي على أعلى درجة، لكنها في الوقت ذاته لاحظت ما حاولت إخفاءه.
قالت وهي تمعن النظر في عينيّ اللتين تحاولان التهرب من نظراتها:
– لماذا لا أراكِ فرحة بالأمر؟
أجبت وأنا أحيد بنظري:
– أنا فرحة بالخبر يا أمي... ألا ترين؟
قالت وهي تعيد نظري نحوها:
– متى ستعلمين أن الأمهات يجيدن قراءة العيون، ويستحيل إخفاء أي أمر له علاقة بأبنائهن؟
قلت بعد أن انكشف أمري:
– في الحقيقة... لم تنل نتيجتي إعجاب من في الفصل، وقام بعضهم بمخاصمتي.

– وما الجديد في الأمر؟ أنسيت ما علمتك إياه؟ ماذا قلت لك؟

أخذت دنيا تسرد ما سبق وعلمتها أمها، كما لو أنه درس تحفظه عن ظهر قلب:

– قلت إنه عليّ عدم الاهتمام لأمرهم، وألا أنتظر من أحد أن يقف إلى جانبي أو يهنئني، وأن أساند نفسي بنفسي وأهنئ نفسي بنفسي...

قاطعتها أمها قائلة:

– بالضبط... ألا تكفيك سعادتي أنا وأبيك وفخرنا بك؟

– أنا لم أقصد ذلك، لكن...

– لا يوجد لكن... إياك أن تحاولي إعطاء أي تبرير لمن كرهك دون سبب، فالأمر لا يستحق.

قالت ذلك ناصحةً، ثم أكملت مداعبة وهي تقرص خدها مع غمزة صحبتها ابتسامة:

– والآن أقلعي التكشيرة وأرينا ابتسامتك المثيرة.

ثم بدأت تدغدغها، فضحكت دنيا ناسية ما كان يشغل بالها.

أشارت يقين لدنيا بأن تتبعها نحو المطبخ:

– لقد كنت متأكدة من تفوقك، وقد حضرت أنا وأبوك هدية ستكون مفاجأة لك بعد الغداء. والآن عليك مساعدتي في الطبخ، فلا بد أن تتعلميه بعد كارثة الفحمة تلك.

ضحكت دنيا ثم بدأت تساعد أمها متبعة تعليماتها وهي تتعلم الطبخ.

كانت هدية دنيا يومها ألعابًا على شكل أدوات طبية، غمرتها سعادة، وأخذت تفحص نبضات قلب كل منهم بسماعتها الطبية اللعبة.
مرت الأيام وبدأت سعادة دنيا تتلاشى بعد مرض أبيها...
دنيا:

تمر الأيام وصحة أبي في تدهور. لم يتمكن الأطباء من الكشف عن سبب تدهور صحته لقلة خبرتهم.
لم يتلقَّ من العلاج سوى وقوفي أنا وأمي بجانبه، وأمي تدعو له على الدوام بأن يستعيد عافيته.

استيقظتُ إحدى الليالي متأخرة، فلم أجدها بجانبي. خفت عليها كثيرًا، فقد أصبحت حزينة معظم الوقت منذ مرض أبي، وقد لاحظت ذلك رغم محاولتها إخفاء الأمر.
أنا أعرف ابتسامتها الحقيقية ويستحيل خداعي بابتسامة زائفة.
لقد حزنتُ لحال أبي، لكن حال أمي لم يكن بأحسن منه.
أشعر أن لحظاتي السعيدة معهم أصبحت في تراجع، وقد أخافني ذلك الشعور.
كانت تراودني في الفترة الأخيرة بعض الكوابيس التي أستيقظ منها فزعة خوفًا من أن أخسر أبويّ...

نهضت من الفراش على الفور، ودرت في المنزل أبحث عنها بخطوات مرتعبة، فإذا بها تجلس وسط الظلام وتصلي في حلكته.
اطمأن قلبي لرؤيتها، فقد شعرت للحظة أنني فقدتها.
أردت التخفيف عنها، فلم يخطر ببالي سوى أن أقوم بشيء تحب مني القيام به.
توضأت وارتديت الجلباب الصغير الذي اشترته لي منذ فترة ولم أكن أرتديه سوى وقت الصلاة.
اتجهت نحوها بخطوات حذرة، ثم بدأت أصلي وراءها دون مقاطعة صلاتها.

ما إن التفتت لإلقاء السلام معلنة انتهاء الصلاة حتى التفتت إليّ بوجه تعلوه ابتسامة رضا.
كانت تلك الابتسامة كفيلة بجعلي أفخر بما قمت به، فبادلتها الابتسامة ثم تقدمت لأجلس بالقرب منها جنبًا إلى جنب.
رفعت يديها نحو السماء تدعو، ففعلتُ مثلما فعلت.
بعد الدعاء، ارتميت في أحضانها، فقد كنت بحاجة ماسة إلى ذلك الحِضن ودفئه.
بكيت بصمت حتى سرقني النوم، ولم أكن أبكي سوى لأني تذكرت خوفي من تحقق ذلك الكابوس المرعب.
كان ذلك الهاجس يتنامى يومًا بعد يوم، وكلما تذكرتهم تشبثت بهم. شعرتُ أنه وخلال عدة أيام فقط زاد عمري عشر سنوات.

في يوم اشتد فيه الحر، طلبت من أمي أن نذهب إلى الشاطئ، فاشترطت حصولي على موافقة أبي الذي لم يعد يخرج من المنزل منذ مرضه. كنت أعلم أنه لن يرفض لي طلبًا...

أخذت دنيا لعبة السماعة الطبية، ثم التقطت ورقة وقلمًا ووضعتهما في جيبها، ثم اتجهت نحو أبيها بخطوات واثقة تحت نظرات أمها المستغربة، والسماعة الطبية حول عنقها.

وقفت مقابلة له، ووضعت السماعة على صدره، وأخذت تتحسسه متقمصة دور الطبيب، كما لو أنها تسمع نبضات قلبه، ثم قالت بعد الإمعان في عينيه اللتين كانتا تنظران إليها باستغراب:

ــ أستاذ إسلام...

تنحنحت قليلًا ثم استرسلت قائلة:
– لقد تم الكشف عن حبيبات عرق قرب قلبك، وهي سبب المشكلة.
ثم أخرجت الورقة من جيبها وأخذت تكتب فيها قائلة:
– سوف نعطيك وصفة طبية عليك الالتزام بها واستعمالها في أقرب وقت ممكن.
أنهت الكتابة ثم مدت الورقة لأبيها الذي التقطها، وما زالت علامات الاستغراب بادية على وجهه.
وأمها تترقب ما كتب في الورقة، بينما عم الصمت للحظة.
ودنيا تتفحص ملامح أبيها الذي ما إن قرأ جملة "يوم على الشاطئ" حتى تعالت ضحكاته وسط سعاله.

بدأت يقين تضحك هي الأخرى برقة، والسعادة تغمرها لرؤية وجه إسلام يزهر بضحكته بعد الشحوب الذي أصابه.

أخذت دنيا تنظر إليهما وتضحك سعادة بسماع ضحكات أبويها التي تعالت في المنزل بعد فترة من الفتور والحزن، ثم ختم الأمر بيوم على الشاطئ كما أرادت دنيا...

مرت أيام تلت ذلك اليوم، وصحة إسلام لا تزال في تدهور.

استيقظت دنيا مبكرًا في يوم عطلتها، فوجدت أمها قد دخلت المطبخ لإعداد الإفطار، فبدأت تساعدها في ترتيب السفرة.

بعد أن انتهتا من الترتيب، طلبت يقين من ابنتها أن توقظ أباها للإفطار، فقد تأخر في نومه.

دنيا:
دخلت إلى غرفته راكضة بحيوية طفولية، وصدى ندائي البريء له يضج في أرجاء المنزل.
وقفت بالقرب من سريره، وضعت يدي على كتفه ثم هززته بلطف منادية له، فلم يجب.
أحطت ذراعيّ الصغيرتين بكتفيه وناديته مجددًا بصوت قد شابه الخوف وارتفع أكثر، لكنني لم أجد إجابة.
ناديت أمي باستنجاد، وكان عقلي وقلبي يقولان:

"أمي ستحل هذه المشكلة كما تفعل عادة".
لكن يومها اكتشفت أن ثمة أمورًا لا يمكن حتى للأمهات تغييرها.
تسمرت أمي عند الباب، تلملم شتات أمرها وتحاول معرفة ما الذي يحدث.
نظرت إليها بعيناي المستجديتان الدامعتان خوفًا وقلقًا، ثم قلت بصوت مرتعب:
– أبي لا يقبل الاستيقاظ!
هرولت باتجاه سريره وبدأت تناديه هي الأخرى محاولة إيقاظه... لكن دون جدوى.
وضعت أناملها على عنقه لبرهة، ثم تهاوت منهارة بانكسار.
جثت على ركبتيها وأجهشت في البكاء محتضنة وجهها بين كفيها.

كل ذلك تحت نظراتي التي غلب الحزن على الخوف فيها.
ورغم عدم رغبتي في تصديق حقيقة أن أبي قد فارق الحياة، وأن ما كنت أخشاه قد تحقق، إلا أن انهيار أمي بذلك الشكل كان يعلن النهاية.

بعد وفاة والدي، حاولت أمي جاهدة التغطية على غيابه، تحاول في كل فرصة صنع الكثير من الذكريات لتبقيها راسخة بداخلي، تنسيني ما حل بأبي وتخفف عني مستقبلًا إن ضاقت بي الدنيا.

بعد أشهر، ظهر حملها بأختي، وكان شاقًا عليها كما صاحبه مرض لم يتمكن الأطباء من كشفه كما جرت العادة.
ظهرت أعراض المرض في الأشهر الأخيرة من الحمل: تورم في الوجه والسيقان، وآلام حادة في الجزء العلوي من البطن، إضافة إلى صداع شديد لم تتمكن المسكنات من تخفيفه.
تمكن الوهن منها فلم تعد تستطيع الحركة. استأجرت أحدهم لتولي العمل نيابة عنها.
كنت صغيرة ضعيفة البنية، لا يمكنني تحمل مسؤولية نفسي ناهيك عن مسؤولية أمي، ورغم ذلك قررت بعقلي الطفولي الذي لا يفقه سوى البقاء بقرب أمي أن أترك دراستي وأهتم بشؤونها، إلا أنها اعترضت ورفضت ذلك بشكل قاطع.

كانت تحاول بكل ما لديها من قوة القيام بشؤونها المنزلية خشية أن أضطر لترك دراستي، رغم أن شغفي بدأ يخفت مع تلك المعاناة، وطموحي يتهاوى شيئًا فشيئًا.

إلا أن الكلمات التي كانت تتجرعها أمي بين الفينة والأخرى أبَت أن تسمح لي بالتراجع عن حلمي. أمر غريب جعلني جادة فيما يتعلق بذلك الحلم رغم صغر سني، وكأن أمي لم تعلمني سوى كيف أحلم وكيف أبقى مصرة على تحقيق حلمي مهما واجهتني الصعاب.

كانت أمي حينها، عندما يتمكن منها العجز، تلجأ إلى ملاذها الوحيد: "صديقتها أسماء".

في أحد الأيام عدت من مدرستي حاملة ورقة نتائجي في الامتحان النهائي، واتجهت إلى منزلنا المتواضع بخطوات فرحة كادت تعيد الحياة لأزقة القرية المتهالكة.

كنت في كل خطوة ترتسم على شفتيّ ابتسامة متذكرة مدى فرح والدتي عندما ترى درجاتي العالية، وأتخيل كيف ستكون تلك الفرحة الحقيقية عليها بعد فترة من الحزن الذي حاولت التغطية عليه بفرح مصطنع...

لكن ما إن وصلت إلى باب المنزل حتى تبدلت تلك المشاعر...

توطن القلق كل خلية مني بعد أن كان الفرح والحماس يغمراني قبل لحظات.
سمعت صراخ أمي المتألم المستنجد؛ صرخات اخترقت قلبي وبدّلت ابتسامتي إلى فزع. هرولت نحوها فإذا بها غارقة في الدماء، وتلك الصرخات المؤلمة لا تفارقها. عندما لاحظت وجودي قالت بصوت يتقطع وسط صراخها:
– أس... أسماء... نادي... أسماء.
لم أعرف ما الذي عليّ فعله وقتها. لم أكن أريد تركها بتلك الحالة، وفي الوقت نفسه لم يكن لدي أدنى فكرة عن سبب ما حلّ بها أو كيف أخفف عنها ذلك الألم.
ترددت للحظات وأنا في حيرة من أمري قبل أن تصرخ بحزم أن أتحرك بسرعة وأنادي لأسماء.

جلبت الخالة أسماء بأسرع وقت أمكن.
بدأت أسماء تجهز لرحيلهما نحو
المستشفى، وحاولت إقناعي أن أبقى في
منزلها ريثما تعود مع أمي، لكن يدي لم
تفارق يد أمي التي شدّت عليها وكأن
ذلك يخفف من ألمها.

بعد لحظات بدأت قواها تخور
وصرخاتها تخفت. أخذت توصي أسماء
بالاعتناء بي إن أصابها مكروه. قالت
تلك الكلمات بهذيان وهي توشك على
فقدان وعيها، لكن كلماتها بدت كوصية
مودّع. أمسكت يدي بإحدى يديها
وأمسكت يد أسماء بالأخرى، وكأنها قد
سلّمت أمرها وأيقنت أن نهايتها قد
اقتربت.

كنت خائفة من كلامها، ولم تكن أسماء أقل خوفًا مني. أخذت تحاول طمأنتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وتحاول إبقاءها مستيقظة. نظرت إليّ بعينيها نصف المفتوحتين، فارتعبت من تلك النظرة؛ لم تكن نظرة أمي التي أعرفها، بل كانت نظرة تحمل خوف من فقدان الحياة، وكأنها تحاول إقناعي بما حاولت أنا رفض تصديقه.

"اعتني بحلمك وأختك".

كانت تلك آخر جملة نطقتها قبل فقدانها للوعي.

وصلنا إلى المستشفى، وأُدخلت أمي إلى غرفة العمليات على الفور، ثم فقدت أخبارها. كنت قلقة وخائفة كما لم أخف من قبل.

. قد أستطيع تجاوز وفاة أبي، لكن أمي؟ سيكون ذلك قاسيًا عليّ... سيكون أشبه بجرعة زائدة من الحزن، فليس لدي طاقة لتحمل ذلك. مجرد التفكير في الأمر كان يرعبني؛ ماذا لو تحقق؟ بدأ الهاجس الذي حاولت ترويضه منذ فترة يعود ليقيم حربًا داخلي ويزرع الفوضى في مشاعري. ماذا لو تركتني أمي وحيدة في هذا العالم؟

كنت صغيرة على تحمل صفعة قوية كهذه. بقيت عيناي معلقتين بتلك الغرفة، أحدق فيها بترقب وأتمنى لو أستطيع اختراق جدارها لأعرف ما الذي يحدث بالداخل.

كانت خالتي أسماء تجلس بجانبي لا تقوى على مواساتي، فالقلق كان قد تمكن منها هي الأخرى.
بعد ساعات طويلة من الانتظار عاد أحد الأطباء حاملاً الأخبار التي سيتوقف عليها مصيري. تقدمت الخالة أسماء لتلقي الخبر وبقيت أنا متسمرة خلفها أترقب ما سيقوله.
– كانت تعاني من تسمم الحمل "preeclampsia" وقد اكتُشف بعد فوات الأوان. اضطررنا إلى اللجوء للولادة القيصرية. نجت الطفلة بمعجزة، لكن لسوء حالة الأم لم نتمكن من إنقاذها. نعتذر... توفيت الأم أثناء الولادة.

كان وقع الكلمات كالصاعقة علينا.
تهاوت الخالة أسماء منهارة من هول الخبر، بينما بقيت أنا متسمرة مكاني غير مستوعبة لما سمعت.
أكمل الطبيب قبل رحيله قائلاً:
ـ كانت الولادة مبكرة، لذلك ستبقى الطفلة شهرًا في المكان المخصص لحديثي الولادة تجنبًا لأي خطر.
ذهب الطبيب بعد تلك الكلمات تاركًا خلفه تلك الطفلة الصغيرة محطمة القلب.

عدت بخطواتي إلى الخلف غير مصدقة. فخسارة أمي تعني فقدان سبل الحياة وسبب العيش. لم يعد لدي مأوى، ولم يعد لدي ملاذ... أصبحت وحيدة بالكامل، كنت صغيرة لكني كنت أعي ذلك.

ركضت خارجة من المستشفى... إلى أين؟
لا أعرف. بقيت أركض في الأزقة الضيقة حتى تعبت. كان الليل قد أوشك أن يرخي سدوله. جلست في أحد الأزقة وأخذت أبكي بمرارة...
كانت الليلة قد أوشكت أن ترخي سدولها، جلست في أحد الأزقة وأخذت أبكي بمرارة... كان قلبي يؤلمني بشدة، كان يحترق، كان يتمزق. كانت ردة فعلي كما لو أن الحدث زاد من عمري سنين.
بكيت حتى أنهكني البكاء، ثم شعرت برغبة في توديعها. أجل، لم تعد رؤية أمي الآن سوى وداع... وداع جسد بلا روح.

لقد غادرت روح أمي جسدها وجعلت الفراغ يملأه، تمامًا كما هو حالي الآن؛ خاوية بلا روح، وحيدة بلا سند، مشردة بلا مأوى...

درت بنظري في الأرجاء بضياع محاولة استعادة توازني، أنوي العودة إلى المستشفى حيث أريد توديع أمي، لكني لم أكن قد لاحظت أن الدنيا قد أعتمت.

كانت ليلة حالكة الظلام اختطفت الغيوم نورها، تمامًا كما سلبتني الحياة أغلى ما أملك.

كانت ليلة من المفترض أن تكون بدرًا، أن يشهد فيها القمر — ككل مرة — على أحاديثي مع أمي وعلى ضحكاتنا المتعالية وعلى حكاياتها المسلية تحت نوره.

لكن القمر ليلتها بدا كما لو أنه لم يرد إنارة أرض لم تعد عليها مؤنسته.
كانت ليلة معتمة ممطرة سيئة الطقس، وكأن السماء تبكي وفاة أمي، والكوكب كله في حداد... أنا وحدي من أعرف سببه، أشعر بالفراغ والحزن يملأ أعماقي.
نسيت طريق العودة، وكنت أركض بلا هدى حين خرجت من المستشفى ولم ألحظ كم ابتعدت.
تهت في تلك الشوارع التي كستها برك المياه وأظلمتها الغيوم...
حاولت الذهاب إلى بيت أسماء أو إلى بيتنا، لكني لم أعثر على أي منهما.
بدأ الخوف يتسلل إليّ. كنت أتغلب على خوفي من العتمة إما بحضن أمي أو باحتضاني للعبتي، ولم أجد ليلتها أيًا منهما.

واصلت العدو بضياع، والدموع لا
تتوقف عن الجريان على وجنتي.
نبضات قلبي مضطربة، خطواتي
مرتعبة، روحي منهكة متعبة.
كانت رؤيتي ضبابية إثر الدموع،
وجسدي يرتعش بسبب البرد القارس.
بدأت قدماي تفقدان القدرة على مواصلة
السير، فخارت قواي، ودارت الأرض
من حولي، ثم سقطت مغشياً علي....

رأيت أمي وهي تختفي في نور ساطع،
متجاهلة ندائي الذي تحول إلى بكاء.

حاولت جاهدة التشبث بثيابها، إلا أن قبضتي ارتخت مع عدوها الذي لم يأبه بصراخي، وما لبث أن اختفى وراء ذلك النور حتى تحول المكان إلى ظلام حالك السواد.

شعرت بثقل تلك العتمة وثقل فراق أمي، فانخرطت في البكاء.

فتحت عيناي باحثة عن حضن أمي لينسيني دفؤه بشاعة ذلك الكابوس المروع، لكني لم أجدها.

درت بنظري في الأنحاء، فتسللت أشعة الشمس إلى عينيّ.

عدت إلى واقعي، وعادت الأحداث إلى ذاكرتي. لقد كان الكابوس حقيقيًا... لقد تركتني أمي بالفعل.

بحثت عن حضن أرتمي به، عمن يشاركني ذلك الألم، لكني لم أجده، فتقوقعت على نفسي وأخذت أبكي بصمت...

بعد فترة وجيزة، استأنفت بحثي عن الطريق. كانت الشوارع هذه المرة تضج بالبشر على عكس سكون ليلة أمس.

بدأت أسأل بعضهم عن الطريق حتى آل بي الأمر إلى الوصول إلى عتبة باب منزلنا.

وما إن هممت بدخوله حتى سمعت صوت أسماء من خلفي، بدت قلقة. قالت إنها بحثت عني طيلة الليلة الماضية.

رأيت الخوف في عينيها، لكن ذلك ليس ما شغل بالي، فسألتها على الفور:

– أين أمي؟

انحنت باتجاهي واحتضنت وجنتي بكفيها، ثم قالت بحنان لم يخفف من وقع كلماتها عليّ:
– لم تعد أمك موجودة يا حبيبتي... لقد توفيت...
كنت أعرف ذلك سلفًا، لكن ما أردته هو رؤيتها للمرة الأخيرة.
أخبرتني أن مراسم الدفن قد تمت.
التفتُّ إلى باب منزلنا وعيناي تغرقان في الدموع، ففهمت أسماء تلك النظرات.
قالت بعد صمت وجيز:
– ستقيمين في منزلي من الآن فصاعدًا.
كنت متوقعة حدوث ذلك، لكنه كان يقلقني أكثر مما يشعرني بالارتياح.
خالة أسماء طيبة القلب وستعتني بي، لكن ابنيها — علاء وعليا — على عكسها تمامًا.

لم يكن أي من علاء ولا عليا يحبني قط، فقد تشاجرت معهم في المدرسة رغم كبر سنهم، ودائمًا ما كانا يتسببان لي بالمشاكل.
فماذا إن أقمت في منزلهما؟
لابد أن الأمر سيكون متعبًا، وأنا مثقلة بالهموم بما يكفي.
لكن الخيار لم يكن بيدي. فإن أردت تحقيق حلمي وحلم أمي، لابد لي من مكان يأويني، ولا مكان لي الآن سوى بيت أسماء التي أوصتني بها أمي.
فور ولوجي إلى المنزل، بدأ العم إياد بمعاتبة أسماء لإحضاري، وبدا مستاءً من إقامتي معهم، وكان معارضًا لذلك. واشتد رفضه أكثر عندما علم أن أختي ستأتي بعد شهر للإقامة معي.

بدأ يسرد لأسماء مدى سوء حالتهم المادية، وكيف سيكون صعبًا عليهم الاعتناء بي وبأختي مع ابنيهما، لكنها ظلت مصرة على قرارها، وقالت:

– يكتب لكل مولود رزقه حتى يموت، ولن نكون أكثر من رمز للإنسانية باحتوائنا لهما.
رغم أنه لم يكن مقتنعًا برأيها، إلا أنه استسلم أمام إصرارها ووافق على إقامتي على مضض...
لم يكن امتهان الطب حلم أمي فقط، لقد كان حلم أمي أن أكون شخصًا ذا أهمية لا غير، بغض النظر عن العمل الذي سأقوم باختياره.

كانت تريد فقط "أن يسطع نجمي" كما كانت تقول.
لكن امتهان الطب كان الشغف الذي ولد بداخلي منذ نعومة أظافري ثم أخذ بالتنامي مع الوقت.
كان سبب وفاة أمي خطأً طبيًا، وكذلك كانت وفاة أبي، وذلك زاد من تمسكي بذلك الشغف، ناوية إنقاذ آباء آخرين وأمهات أخريات.
أخذت تلك الفكرة متسعًا من قلبي الصغير، فزاد إصراري على تحقيق ذلك الحلم.
وحاولت جاهدة تجاهل كلمات عليا وعلاء القاسية، كما حاولت تجنب إثارة المشاكل معهما، فلم أكن أريد إثارة قلق الخالة أسماء بعد أن تحملت مسؤوليتي رغم اعتراض زوجها.

كانت تصرفاتهما آخذة في التنامي، لكني أميل إلى الكتمان، فلم أشارك أي شخص ما يحدث بيني وبينهما.

عندما أشعر أن قلبي قد أثقل بالهموم أكثر مما أستطيع تحمله، كنت أزور منزل أبواي لأستعيد ذكرياتي الجميلة هناك. كان ذلك مريحًا ومحزنًا في آنٍ واحد.

أذكر صدى ضحكاتنا في جدرانه، ثم أعود إلى الواقع لأرى كيف اكتست تلك الجدران بالغبار، وكيف بهت جمال ذلك المنزل بعد أن كان زاهيًا بحبنا.

تتدحرج دمعة اشتياق على وجنتي كلما تذكرت ما عشته فيه. بدا ذلك المنزل مشتاقًا لذويه، تمامًا كما اشتقت أنا لهم.
مر ذلك الشهر بثقل، وكان كل يوم فيه كأنه عام، لكنه انتهى في نهاية المطاف، وحان موعد استلام أختي.
كنت فرحة بالخبر كما لم أفرح منذ وفاة أبواي. شعرت أن تلك الطفلة ستكون ملاذي وطوق نجاتي، ومن سيخفف عني وطأة الأحداث التي صارت رتيبة في حياتي.
شعرت، لسبب لا أدري إن كان بسبب كونها آخر من تبقى من عائلتي أو لأن أمي أوصتني بها، أن قدومها وحده سيجعلني أصمد أمام أي عائق.

اتجهت قبل أيام من موعد قدومها وبدأت تنظيف غرفتي وتجهيزها لها، ظنًا مني أنه باستطاعتها الإقامة معي هناك.
كما استثمرت المهارات التي اكتسبتها من تعليم أمي للحياكة، فقمت بحياكة بعض الملابس والجوارب لأجلها.
كنت أقوم بكل ذلك بعيدًا عن عيون التوأمين — عليا وعلاء — خشية أن يفسدا ما كنت أخطط له، فقد اعتادا أن يفسدا كل ما يشعرني بالسعادة.
في اليوم الذي سبق قدوم أختي، انسجمت مع التجهيزات فلم أنتبه لمرور الوقت. سهرت تلك الليلة وأنا أجمع بقايا الأقمشة وأحيكها، وأقوم بتزيين الغرفة برسومات تعكس الذكريات التي عشتها مع أهلي، رغم أنني لم أكن أجيد الرسم، إلا أن حماسي كان كافيًا للمحاولة.

كنت متحمسة لأخبر أختي بكل تفاصيل عشته مع أهلنا، وأنوي تعويضها عن كل ما فاتها من حنان الأبوين، وأن أكون لها الدفء العائلي الذي حرمها القدر منه.
أخذت تلك الأفكار جل انتباهي، فلم أنتبه للوقت حتى سمعت صوت الباب يفتح مع صوت نداء أسماء التي قلقت عليّ حين تأخرت.
قلت بعد أن كُشف أمري:
– كنت أجهز غرفتي لتسكن فيها أختي عندما تأتي.
ابتسمت أسماء بتأثر ثم قالت وهي تقابلني:
– حبيبتي، أختك صغيرة ولا يمكنك الاعتناء بها بمفردك.
قلت باحتجاج:
– لكن أمي أوصتني بها.

ردت أسماء بحنانها المعتاد:
– أمك أوصتني بك أيضًا.
هممت بالاعتراض، لكنها قاطعتني قائلة:
– إن أردت الاعتناء بأختك، فعليك إبقاؤها في منزلي حتى أساعدك في ذلك، ويمكنك زيارة هذه الغرفة من وقت لآخر.
بدا كلام أسماء صارمًا وقتها، فلم يكن بيدي حيلة.
عدت معها إلى منزلها، والتفكير بقدوم أختي لا يفارق ذهني، حتى غلبني النعاس بعد أن أنهكني التفكير، فخلدت إلى النوم.
في اليوم التالي، أصررت على الذهاب مع أسماء لأخذ أختي، فلم تعترض.

ذهبنا إلى المستشفى، وكنت أول من حمل أختي. كانت تلك أثمن لحظة في حياتي كلها.

ما إن وقعت بين يدي حتى شعرت كما لو أنها قطعة مني. أمعنت النظر في كل تفاصيلها الصغيرة باحثة عن أي شبه لأبواي.

تذكرت كونها أمانة أمي، وآخر ما تبقى منها هي وأبي، فاغرورقت عيناي بالدموع عندما رأيت عينيها العسليتين كعينيّ.

شعرت بقوة رابطتنا حين نظرت إليها بانتشاء لا يوجد سبب له سوى وجودها.

تذكرت شعوري في تلك الليلة المعتمة حين فقدت أمي، ثم عدت بذاكرتي إلى ما بين يدي الآن، فقررت تسميتها نور، وفي أعمق أعماقي أشعر أنها ستكون نور دربي المعتم.

نطقت اسمها وقد سكن حبها في كل خلية مني منذ تلك اللحظة:
«نور دربي...»
قلت ذلك وأطلقت ضحكة رقيقة وأنا أمعن النظر في حركاتها الطفولية وأعضائها الصغيرة.
ذهبت أسماء لتولي إجراءات خروج الطفلة وتحمل تكاليفها، بينما بقيتُ أداعب أختي الصغيرة التي عاملتها وكأنني عثرت لتوي على كنز ثمين.
تمهلتُ لحظات أتأمل ملامحها وحركاتها الصغيرة، قبل أن أغرق في بكاء صامت لا أعرف له سببًا، سوى أنني لم أدرِ ما عليّ فعله.
كل ما خطر لي حينها هو أن أغني.

رفعتها بلطف، وضعتها على كتفي،
وبدأت أربّت عليها بحنان.
اقتربت بشفتي من أذنها وبدأت أغني
بكلمات مرتجلة خرجت من قلبي كما
هي:
♪♪♪
لا تبكي يا نور دربي...
لا تبكي يا نبض قلبي...
لا تبكي... لا...
إن حبي فيك قد سكن...
قلبي لك وطن...
♫♫♫
نامي يا حبيبتي...
نامي يا حلوتي...
نامي يا حياتي...
إن قلبي لك وطن...

وما إن انتهت الكلمات حتى كانت الطفلة قد غرقت في سبات هادئ، كأن الأغنية طمأنتها أن العالم ليس قاسيًا تمامًا.

بدأت أعيش كل لحظة من حياتي دون أن تكون ثقيلة عليّ. بدأت أسماء تلاحظ تصرفات ابنيها وتحاول ردعهما، بينما غرقت أنا في العالم الذي صنعته لي تلك الطفلة دون أن ألقي بالًا لأي كلمة تخرج من أفواههما.

كان كل شيء يسير على ما يرام قبل عودة المدرسة وعودة شجارات علاء وعليا المعتادة، لكن هذه المرة كانت أعنف.

في إحدى الأيام، طلبت المعلمة من عليا أن تقوم ببعض الأعمال في الفصل بعد انتهاء الدوام، فطلبت مني المساعدة رغم أنني لم أكن أدرس معها في نفس الفصل لفارق العمر بيننا.

بدت لطيفة في ذلك اليوم لدرجة أنني شعرت أنها ترغب في إنهاء المشاكل بيننا، وقد راقت لي تلك الفكرة فقبلت مساعدتها دون تردد.

لكنها ما لبثت أن أنهت عملها حتى أظهرت لي وجهها الذي اعتدته، وبدأت تعنّفني، ثم أغلقت الباب خلفها بعد أن تكورت من الألم إثر ضرباتها.
لم أشعر بما حدث إلا حين سادت العتمة في أرجاء المكان وضاقت أنفاسي إثر إغلاق الباب.
ما إن أُغلق ذلك الباب حتى عادت ذكرى فقدان أمي كما لو أنني أعيشها في تلك اللحظة.

كان خوفي من العتمة كالرهاب، وبعد تلك الحادثة صارت الأماكن المغلقة أكثر إرهابًا لي من ذي قبل.
شعرت بمشاعر الخوف والضياع ذاتها، واندفعت نحو الباب أضربه بكل ما أتيت من قوة، صارخة بأعلى صوتي لعل أحدهم يخرجني مما أنا فيه... لكن لم يجبني سوى الصمت.
بدأ الخوف يستوطن كل خلية مني، وما إن تذكرت أن غدًا عطلة حتى تنامى ذلك الخوف وبدأت أفكاري تضطرب.
أيقنت وقتها أن نهايتي محتومة في ذلك المكان.
ضاعفت قوة طرقاتي على الباب أكثر وأكثر حتى خارت قواي.

انزويت في ركن الفصل ألتقط أنفاسي،
ثم أخذت أبكي بصمت.
لم يكن بكائي خوفًا من الموت بقدر ما
كان خوفًا من الحياة التي ستعيشها أختي
من بعدي.
لابد أن الحياة ستكون قاسية عليها،
وستعاني من تصرفات علاء وعليا كما
عانيت، لكنها لن تكون قوية للتحمل.
نظرت إلى الأعلى بعيون خالية من أي
بصيص أمل، ثم قلت بخيبة معتذرة:

ــ آسفة يا أمي، لم أستطع الاعتناء
بأختي كما أوصيتني...
ثم بدأ الاختناق يبتلع كلماتي.

اتجهت إلى طاولات الفصل بخطوات مترنحة، أخذت إحداها وبدأت أدفع بها الباب بقوة توشك على النفاد محاولة كسره، وكررت الأمر نفسه مع طاولات أخرى، لكن محاولاتي لم تسبب له سوى ثقب صغير بالكاد يسمح بدخول الهواء إلى رئتيّ.

كنت مع كل محاولة أشعر أن الظلام أصبح أكثر حلكة... يبدو أن الليل في طريقه ليزيد المكان سوادًا فوق سواده.

سقطت منهارة بعد أن استنزفتني تلك المحاولات المستميتة لكسر الباب، ثم غلبني النعاس بعد كل ذلك الإنهاك...

شعرت بنضح ماء على وجهي، ففتحت نصف عيني لأصطدم بأشعة الشمس برؤية ضبابية، ثم وضعت يدي على رأسي الثقيل أحاول رفعه.

أدرت بنظري لأرى طيف شخصين لم تتضح ملامحهما بسبب رؤيتي الضبابية.
حاولت النهوض، فساعدني أحدهما حتى اعتدلت في جلستي واستعدت وضوح الرؤية.
لم أتوقع الوجه الذي رأيته... كان وجه عليا.
قالت بحدة وهي تنظر إلى عينيّ وتشير بسبابتها، بينما أنا لا أفهم شيئًا مما تقول:
– استمعي إلي جيدًا يا وجه النحس...
أمي لم تغمض لها عين منذ اختفائك يوم أمس، ولا تزال تبحث عنك حتى الآن ولا تعرف مكانك.
ستعودين إليها وتقولين إنك أضعت طريق العودة إلى المنزل حين افترقنا يوم أمس، وإن بعض الهمجيين هو من تسبب لك بعلامات الضرب هذه.

ستفعلين ما قلته كالكلب المطيع، وإلا...
تعلمين جيدًا ما يمكنني القيام به، وعليك التفكير في أختك الرضيعة قبل اتخاذ أي قرار.
حاولت فهم ما حدث بعد نومي في الفصل. التفتُّ لأعرف المكان الذي أنا فيه فعرفت أننا خلف المدرسة.
بدأت أفهم ما يحدث، واستنتجت أن عليا — بعد أن رأت ردة فعل أمها — خافت من فعلتها، فعادت إلي صباح اليوم واستطاعت بطريقة ما تحريرني من حبسي في الفصل دون علم أمها، وهي الآن تحاول التغطية على فعلتها بإسكاتي.
وأنا موقنة أن أخاها سيكون عونًا لها، ولن يدخرا أي طريقة إرعاب كي أبقى

ساكتة ولا ينكشف أمرهما، ووجوده هنا في هذا الوقت أكبر دليل على ذلك.
بدأت أستوعب كلامها، وللحظة استفزتني طريقتها، ونويت رفض ما قالت.
لكن سرعان ما عدت إلى رشدي؛ فمنذ البداية لم أكن أود إحداث المشاكل للخالة أسماء بسبب ابنيها.
وإن فكرت في الهروب فليس لدي مكان أذهب إليه، فكان الخيار الوحيد أن أتمسك بالمأوى الذي بالكاد حصلت عليه، وأحاول تجاهل عليا وأخيها قدر المستطاع.
فأنا وإن لم أكن مهتمة لمشاعر أسماء، فأنا عاجزة عن مواجهتهما... فهما أكبر مني سنًا وأقوى مني.
لا شك أنني سأكون الطرف الخاسر وإن فزت.

وافقت على كلام عليا ونقلتُه بحذافيره إلى أسماء التي كانت قلقة عليّ.

ورغم أن كلامي لم يكن مقنعًا، إلا أنها تثق بي لأبعد حد وتستبعد كوني أكذب عليها.
كان الأمر صعبًا عليّ، لكنني في الوقت ذاته شعرت أن ما فعلته هو الصواب.
بعد تلك الحادثة علمت أن هذين التوأمين أخطر مما تصورت... تقوقعت أكثر فأكثر حول أختي لأتناسى قسوة المحيط الذي أعيش فيه.
سلمت من لسان عليا في الفترة التي تلت الحادثة؛ يبدو أنها خافت أن تكشف أسماء أمرها، فخففت من مضايقتي بعد علمها بشكّها بها، على الأقل حين تكون

أسماء موجودة.
في إحدى الليالي أتى ابن جارتنا رنا وأخبر أسماء أن أمه تود التحدث معها في أمرٍ ما، فاضطرت أسماء لترك المنزل ليلًا على غير العادة، وأوصتنا بعدم إحداث أية مشاكل في غيابها، كما أوصتنا بالاعتناء بنور. كان العم إياد ليلتها لم يعد إلى البيت بعد، وما إن وجدت عليا الفرصة، حين لم يكن في المنزل سوانا، حتى انهالت عليّ بتلك الكلمات.
بدت تلك الليلة كالبركان المنفجر. سمعت منها الكثير من الألفاظ من قبل، لكنها لم تكن بقسوة كلماتها تلك الليلة، وكأنها في الفترة السلمية التي مرت بيننا كان الحقد يغلي بداخلها والبغض ينهشها، فكتمت كل ذلك حتى أخرجته دفعة واحدة...
قالت:

"استمعي إليّ يا هذه، ابتعدي عن أمي وعائلتي ومنزلي، ولا تحاولي نشر نحسك بيننا، ولا تظهري تلك الملامح البريئة لتخفي السواد الذي يكمن في أعماقك. لقد خسر أبوك عائلته وأمك كذلك، والآن ها أنت تخسرينهم، ولا أستبعد أن تموت أمي بعد أن آوتك، فالنحس يمشي في دمك! أنت كارثة متنقلة، أتفهمين؟ أينما ذهبتِ يحلّ الدمار. أنا أشفق على أختك الصغيرة، لا بد أنها ستخسر حياتها بسببك، هذا إن لم تكن منحوسة هي الأخرى! أنتِ لعنة، دمار، كارثة... اخرجي من حياتنا ودعينا نعيش بسلام!"

أنهت كلماتها ثم دفعتني حتى سقطت أرضًا، وبدأت هي وأخوها يدوران من

حولي مرددين بصوتٍ مزعج:
"اخرجي أنتِ ونحسك من بيتنا!"
حاولت في البداية تجاهل الأمر، تحمله، الصبر عليه... لكنه كان قاسيًا، ولم أستطع الصمود أكثر. ضغطت على أذنيّ لأهرب من كلماتهما وأنا أبكي بصمت، ثم نهضت بسرعة، حملت أختي بين يديّ، وخرجت جريًا من ذلك المنزل الذي غدا جحيمًا في رمشة عين...
حين وصلت أسماء إلى منزل جارتها رنا، أخبرتها عن انتشار حوادث خطف الأطفال في القرية في الآونة الأخيرة. لم تكن أسماء، بسبب ضغوطها وانشغالها، تعلم شيئًا عما يحدث في القرية، فقد انغمست في العمل لتثبت لإياد أن قدوم دنيا لن يضيق عيشهم.

بعد أن سمعت الخبر خافت من كون الأطفال بمفردهم في المنزل، فعادت مسرعة إليهم. وما إن دخلت حتى استقبلتها عليا تسألها إن كانت دنيا معها، مدعية جهلها بسبب خروجها، وكالعادة يجاريها أخوها في كل ما تفعل.

بدأ الخوف يدب في قلب أسماء، وبدأت تبحث عن دنيا وأختها في أرجاء القرية. سألت الجيران إن كان أحدهم رآها، لكن الجميع أجاب بالنفي، مما زاد قلقها. لم يثنها عن البحث طيلة الليل إلا زوجها إياد، الذي طلب منها إيقاف بحثها واستئنافه صباحًا، علّها تسأل في المدرسة إن كان أحد الطلاب قد رآها.

رغم أن دنيا لم تمكث مع أسماء سوى عدة أشهر، إلا أنها تعلقت بها كثيرًا

وأحبتها كابنيها أو أكثر...
أشرقت الشمس منبئة ببدء يومٍ جديد، فانطلقت أسماء إلى المدرسة بعد ليلة لم تغمض لها فيها عين. سألت صديقة دنيا الوحيدة "زمرد"، ثم بقية التلاميذ، لكنها لم تعثر على أي معلومة عن تلك الطفلة التي اختفت وكأن الأرض ابتلعتها...
قبل اختفاء دنيا وأختها، لوحظ اختفاء طفلين آخرين من أطفال القرية، وبعد اختفائهما بفترة اختفى علاء وعليا، ثم تلت تلك الحوادث حالات اختفاء كثيرة، ليصير الأمر أخطر من ذي قبل.
اجتمع كبار القرية لإيجاد حلٍّ للمشكلة بعد محاولة تفسيرها. لاحظوا أن معظم عمليات الخطف كانت عند عودة الأطفال من المدرسة، فقرروا تكليف

بعض الرجال بمراقبة الأطفال أثناء عودتهم، والانتشار في الأرجاء على أمل الإمساك بطرف الخيط.
بينما كان أحد الرجال يراقب طفلًا، رأى امرأة لم يظهر منها سوى عينيها المملوءتين شرًا. انقضت على الطفل بسرعة البرق كالشبح، واختطفته تحت نظرات الرجل المصدومة، الذي فقد تركيزه لوهلة قبل أن يتبعها بحذر.

سارت مبتعدة عن القرية حتى حدودها حيث يقع شاطئ المحيط، وبقي الرجل خلفها يسترق النظر. وما إن وصلت حتى رأى ما طالما تساءل الجميع عنه: رأى الكثير من الأطفال، وعرف أغلبهم، فقد كانوا الأطفال المختطفين.
كان معهم رجال ونساء تشاركوا ملامح

الإجرام ذاتها. اتضح أنهم عصابة، وكانوا يجهزون القوارب لنقل الأطفال، لا بد أنهم ينوون تهريبهم لسبب خبيث يليق بأشكالهم.
قرر الرجل العودة لإخبار القرية، لكن أمره كُشف، وألقي القبض عليه، لينتهي به المطاف أسيرًا كحال أولئك الأطفال...
دنيا:
خرجت من المنزل حاملة أختي الرضيعة بمزيج من السخط والحزن.
قررت، كطفلة، أن أبتعد عن أسماء كما أخبرتني عليا، وأن أبحث عن مكان أعيش فيه مع أختي بعيدًا عن كلماتها الجارحة وخططها الخبيثة.
فجأة شعرت بأحدهم يكتم أنفاسي، ولم أجد نفسي إلا وكل شيء حولي يتحول

إلى ظلام حالك.
فتحت عينيّ لأجد نفسي مقيدة اليدين والقدمين. نظرت حولي فرأيت الكثير من الأطفال في مثل حالي. بحثت عن أختي فوجدتها بين يدي تلك المرأة التي بدت كالشيطان.
حاولت فك وثاقي مرارًا وفشلت، حتى يئست... ثم توافد أطفال آخرون، وفوجئت حين رأيت عليا وأخيها في الحالة المزرية ذاتها. رغم أنني لم أكن أحبهما، حزنت لما حدث لهما، وحزنت أكثر حين تخيلت حال أسماء بعد اختطاف ابنيها التوأمين.
مرت الأيام واستوطن اليأس قلوبنا، حتى ظهر بصيص أمل حين أُحضر ذلك الرجل الذي حاول إنقاذنا... لكنه ما لبث أن احتُجز هو الآخر.

كانت تلك النسوة يتناوبن على الاعتناء بأختي لسببٍ جهلته، بينما كان الرجال يراقبون بقية الأطفال. وفي ذلك اليوم بكت أختي بكاءً مريرًا جعل المرأة التي كانت تعتني بها تسأل عن أيّ قريبٍ لها ليقوم بتهدئتها، فقد أزعجها صوتها كما كانت تقول. وما إن سألت عن وجود قريبٍ للطفلة حتى رفع كلٌّ من علاء وعليا أيديهما المقيّدة إشارةً منهما إلى كونهما قريبَيها. كان ذلك بصيص أملٍ لفكّ وثاق من سيقوم بإسكات الطفلة.

أشارت إحداهنّ إليّ لأقوم بإسكات أختي، فقد علمت بعلاقتنا منذ قامت باختطافي.

بعد أن فُكّ وثاقي، درت بنظري في

الأرجاء بنظراتٍ متفحّصة، باحثةً عن طريقة تمكّنني من استغلال الفرصة التي سنحت لي. كان قلبي يعتصر ألمًا من سماع بكاء أختي، فلم أستطع التفكير بذكاء، لكن حين هدأت نور بعد احتضاني لها، وأشارت لي المرأة أن أعيدها إليها، لمحتُ ذلك الخنجر المعلّق في خاصرتها.

عندها طرأت لي فكرة أن أستلّ الخنجر من خاصرتها أثناء أخذها لنور دون أن تشعر. استطعت أن أستلّ ذلك الخنجر الصغير دون أن تلاحظ، وقمت بتخبئته على الفور، ثم بدأت أفكّر: ما الذي سأفعله بذلك الخنجر الصغير؟...

كان حزن أسماء يزداد يومًا بعد يوم، وحرقتها على أبنائها انعكست سلبًا على صحتها. لم يكن في القرية من يخفّف

عنها، فقد شغل الجميع مصابُه. كانت النيران المشتعلة في قلب أسماء تشتعل في قلب كل أمٍّ في القرية فقدت ابنها، ولم يكن الآباء بأحسن حالٍ منهن، فقد كان الشعور بالعجز ينهشهم، وقلوبهم تتقطّع حزنًا على فراق أبنائهم.

أخذت العصابة حذرها، ولم تعد تختطف أطفالًا جددًا حتى لا تلفت الأنظار. لم تعد تفكّر سوى في المغادرة بمن في حوزتها من أطفال وبيعهم قبل الكشف عن مكانها ومخططاتها.

دنيا:

أشارت المرأة لأحد الرجال ليعيدني إلى مكاني ويعيد تقييدي. جُلتُ بنظري نظرةً سريعة باحثةً عمّا يمكنني القيام به.

أمسك الرجل ذراعي بعنف وسار بي

نحو المكان الذي كنت فيه. وأثناء سيرنا مررتُ بالقرب من الرجل الذي كان يتنصّت على العصابة وينوي إخبار أهل القرية بما تقوم به. مررتُ من خلفه وهو مقيّد، وقد حرسه رجلان من كلا الجانبين، فأعطيتُه الخنجر بسرعة خاطفة، ودسسته في بنطاله دون أن يعلم بذلك سوانا. نظرتُ إليه نظراتٍ مستنجدة، ثم أشرتُ له أن يحاول الهرب.

مرّت لحظات صمت لم يتغيّر فيها شيء. لم نلحظ سوى هرج العصابة ومرجهم وهم يجهّزون القوارب لنقل الأطفال خارج البلاد. مرّت لحظات لم أرَ فيها من الأمل سوى نظرات ذلك الرجل الذي بدا أنه يفكّر في خطة محكمة للهروب. شعرتُ أن ذلك الرجل سيكون منقذنا من هذا المأزق.

بعد لحظات أصرّ أن يذهب إلى الحمّام لقضاء حاجته، وادّعى عدم استطاعته التحمّل أكثر، فصحبه أحد الرجلين اللذين كانا يحرسانه. فأشار لي قبل ذهابه أن أقوم بتشتيت العصابة كي لا يلحظ أحدٌ تأخّره. وما إن ذهب حتى بدأت أفكّر في كيفية تشتيتهم كما طلب مني.

عندما توارى الرجل عن الأنظار فكّ قيده دون أن يلحظ الحارس ذلك، وفي لحظة مباغتة انقضّ عليه بضربةٍ أسقطته صريعًا فاقدًا للوعي، ثم هرب عائدًا إلى القرية لجلب الدعم.
أثناء تفكيري في كيفية تشتيت العصابة، تذكّرت أنهم منذ اختطاف الأطفال وهم يهتمّون بصحتهم، ربما أرادوا أن يتقاضوا عنهم أموالًا طائلة حين يكونون

بصحة جيدة. فتظاهرتُ بالمرض، وادّعيتُ أن ألمًا شديدًا في صدري يكاد ينهي حياتي التي اتضح لي أنها مهمّة بالنسبة لهم، كما تظاهرت بأن نفسي يضيق وأنني أختنق.

في البداية لم يكترث أحد، قبل أن يصرخ فيهم ذلك الرجل الذي بدا أنه الزعيم:

"ماذا تنتظرون أيها الحمقى؟ أسرعوا لتفقد أحوالها! فوالله لو رأيتموها كما أراها، لهافتم للاتصال بالإسعاف من أجلها! فهي في عينيّ كتلة أموال قد تساوي الملايين!"

ركض الكثير منهم نحوي وسط استغرابي، فلم أكن أتوقع كل ذلك الاهتمام منهم. وعندما لاحظت ذلك غمزت لبقية الأطفال أن يقوموا بالمثل، فبدأ بعضهم يتظاهر بألمٍ في بطنه، وآخر في صدره، والبعض تظاهر أنه يوشك

على فقدان وعيه. فحدثت جلبة في المكان أرعبت نور، فبدأت بالبكاء، فعمت الفوضى الأرجاء. بدأت أتمادى في التمثيل وأدّعي أن حالتي تسوء أكثر فأكثر. وبعد فترة ليست بالقليلة ظهرت إمارات نجاح الخطة...

عاد الرجل إلى القرية كما اتفقنا، وأخبر أهلها بما يحدث، فقاموا بالتبليغ عن العصابة فورًا. وخشية تأخر الشرطة كعادتهم، تأهّب رجال القرية لمهاجمة العصابة. أظهر الآباء يومها غضبهم، وهاجموهم بأسلحتهم التقليدية التي حصدت أرواح الكثير منهم، قبل أن تنضم الشرطة وتحاصر المكان، ثم تُلقي القبض على من تبقّى حيًا.
رغم تهافت رجال القرية إلى المكان، لم يستطع إياد ترك أسماء بمفردها وهي

بتلك الحالة. وبعد اعتقال آخر فرد من العصابة وهدوء المكان، بدأ الآباء يعبرون عن فرحهم بعودة أبنائهم بعد أن فقدوا الأمل.

حينها لم يجد علاء وعليا ما وجده أولئك الأطفال من الشعور بالأمان لرؤية آبائهم. كان الأمر عاديًا بعض الشيء، فليس لكل الأطفال آباء. ورغم انزعاجي من ذلك، كان فيه نوع من المواساة لي، فكون أحدهم في حالتي يخفف عني الفراغ الذي شعرت به. لكن تلك المواساة لم تدم طويلًا، فسرعان ما عدنا إلى القرية، وعاد الجميع إلى عائلاتهم...

بينما كانت أسماء تندب وتذرف دموع اليأس، رغم كونها وسط صديقاتها وزوجها بجانبها، إلا أن الحزن والبؤس قد بلغا فيها ذروتهما، فلم تعد تشعر بمن

حولها. كانت الدقائق تمرّ عليها كالأعوام وهي في انتظار عودة ابنيها، ثم تسلّل إلى مسامعها هتاف الناس وبهجتهم بعودة أبنائهم، لتكون عودة ابنيها ختام حزنها، وعودة الأمل لينير عتمتها، وانفراج سرورها الذي لطالما اشتاقت إليه.

لتحتويهما احتواءَ من قضى أعوامًا في صحراء قاحلة باحثًا عن شربة ماء، فوجد بعد بحثٍ كاد يكلّفه حياته ما يروي عطشه. كانت أسماء متعطشة لذلك الحضن لدرجة أنها نسيت تمامًا وجود دنيا وأختها...

دنيا:

وقفت محتضنة أختي الصغيرة، ذارفة دموع الشوق لأمي، والافتقاد لأبي، والغيرة من كل طفلٍ وجد من يحتضنه

بعد ما تعرّض له. شعرت أنني مهمّشة في هذه الدنيا، منبوذة ووحيدة رغم تزاحم الحشود من حولي. شعرت أن قلبي يُضرَب مرارًا بالحجارة دون رحمة، يُثقَب بالأشواك من كل جانب، يحترق بالنيران من أعمق أعماقه. أحمل من الهموم ما يعادل وزن جبالٍ في غاية الضخامة، لا تُعدّ ولا تُحصى. كان ذلك كثيرًا عليّ، قاسيًا عليّ، أكبر من عمري الصغير الذي لم يتجاوز ربيعه الثامن...
بعد أن طالت نظراتي الصامتة التي حوت صرخات أوجاع العالم أجمع، وأنين ألمٍ شديد يستحيل تحمّله، وجّهت أسماء أخيرًا نظرات الشفقة نحوي، بعد أن أشار الأطفال بفضلي عليهم وكوني كنت سببًا في عودتهم إلى أحضان عائلاتهم. حينها فقط أسفت أسماء على إهمالها لي، رغم أن ذلك الإهمال كان مبرّرًا في لحظة كهذه.

كنت أعلم أن أسماء لطالما أحبتني، لكنها – وإن كانت كذلك – يستحيل أن تحمل لي في قلبها ربع حبها لابنيها. احتضنتها لأحاول مواساة نفسي بذلك الحضن، ولأبحث عن رائحة أمي فيه، لكن تلك المحاولات لم تكن كافية، فلم تكن سوى تسليطٍ للأضواء على خانة الفراغ التي تركتها أمي بعد وفاتها؛ تلك الفجوة التي مهما حاولت ملأها أقف عاجزة أمامها.

عادت المياه إلى مجاريها، وعادت الأيام رتيبة كما كانت، لكنني لم ولن أنسى ذلك الموقف. لم يُحفَر في ذاكرتي من تلك الحادثة البشعة سواه:
"ليس هناك أصعب من الأسر سوى أن تعود ولا تجد من ينتظرك."
حاولت جاهدة ألا أسمح لتلك الذكرى أن تؤثر سلبًا عليّ. أجهدت نفسي في

المذاكرة، وصببت كل تركيزي على دراستي، وضعت حلمي وحلم أمي نصب عينيّ. ورغم أنني كنت أضغط على نفسي في كل لحظة، إلا أنني لم أسمح لذلك أن يؤثر على علاقتي بأختي. كنت أفعل معها كما كانت أمي تفعل معي: "أقضي معها ليالي البدر"، وباقي الأوقات أقضيها مع دفاتري في أي فرصةٍ تسنح لي. ولم يخفف عني ذلك الضغط سوى مشاركتي أختي جلّ مراحل تطورها...

كرؤيتي لها وهي تجلس لأول مرة، ورؤيتي لها وهي تحاول الحبو، ثم حين خطوتُ معها خطواتها الأولى. لا شيء يضاهي سعادتي حين سمعتها تنطق اسمي لأول مرة، وبعقلها الصغير ذاك وقلبها البريء نادتني: "ماما دنيا".

شعرت بسعادة عارمة حين سمعتها

تناديني وكأنني أمها. لقد كنت طيلة الفترة التي اعتنيت بها أودّ أن أكون أمًا لها بعد أن أوصتني أمي بها، لكنني لم أتخيل يومًا أن تناديني "أمي"، وتكون تلك الكلمة أولى كلماتها... شعرت بما يصعب عليّ وصفه. لا يمكنني وصف ذلك الشعور بأي كلمات، فهو تمامًا كما لو أنني صرت أمًا في عمري الصغير ذاك، ويستحيل أن أصف كيف تكون من بعمري أمًّا!

تحسّنت معاملة عليا وعلاء لي بعد تلك الحادثة، مما سمح لي بالتركيز أكثر على ما كنت منغمسة فيه. وبعد تفوقي عدة مرات، كسبت الكثير من الجوائز التي قدّمتها لي مدرسة القرية تكريمًا لتحطيمي الرقم القياسي بدرجاتي العالية بشكلٍ لافت. وكانت تلك إحدى المسائل

التي زادت من حقد الطلاب عليّ وحسدهم لي. كما بدأت الشجارات تعود بيني وبين التوأمين، خصوصًا بعد أن التحقت بهما في الفصل نفسه الذي أخفقا فيه ثلاث سنوات.

وفي خضمّ تلك المشاكل ظهرت زمرد، تلك الصديقة المقرّبة التي كانت كالجوهرة النادرة. كانت نقية القلب على عكس كل من يحيط بي. كنت وحيدة وسط الطلاب قبل أن تنتشلني هي من تلك الوحدة.

"أحيانًا يتمثل لك العالم بما فيه في شخصٍ واحد فقط."

وهكذا كانت زمرد لي، بعد أن كانت نور وحدها عالمي.

كان وجود كل من نور وزمرد في حياتي يجعلني سعيدة رغم كل ما أعيشه؛ فقد كانتا بمثابة النور الذي

يضيء حياتي المظلمة ودربي الشائك.
كانت نور تنسيني كل الهموم التي تراكمت على كاهلي بابتسامتها البريئة، وكانت زمرد بأحاديثها تشعرني – وللمرة الأولى في حياتي – أنني شخص يصلح لأن يكون صديقًا.
كنت أتعرض للتنمّر كل يوم، ثم أعود إلى أختي راسمة تلك الابتسامة الزائفة التي اختبأت خلفها كتلٌ من الهموم. لم أكن أود أن يؤثر حزني على نفسية نور، فهي بالكاد بلغت عامها الثالث، حتى إنها لا تفقه سوى نطق اسمي، رغم أن من في عمرها يكاد يكون فصيح النطق.
لم تكن نور كباقي من في عمرها؛ لم تكن تحب اللعب إلا بصحبتي. ورغم أن لأسماء دورًا كبيرًا في تربيتها، إلا أنها اعتبرتني وحدي دنياها دون غيري.

تراجعت الظروف المادية في بيت الخالة أسماء، وعاد إياد للاعتراض على إقامتي أنا وأختي معهم، وهذه المرة كان فظًا معنا كما لم يكن من قبل. كان عليّ أن أساهم في مصروفي بأي طريقة ممكنة. ورغم محاولات أسماء معه بأن يحترم عمر الصغيرة التي لم تفقه شيئًا، إلا أن ذلك لم يحسّن معاملته لنا.

بحثت عن عملٍ مناسب لي ولساعات دوامي، فلم أجد سوى أن أعمل في بيوت أهل القرية في التنظيف والغسيل. ورغم أن أهل القرية كانوا يفضّلون القيام بتلك الأعمال بأنفسهم دون استئجار أحد، إلا أن شفقتهم على حالتي جعلتهم يقبلون بي. ومع ذلك، كنت أتقاضى من المال ما لا يكاد مجموعه لشهرٍ كامل يكفي مصروفي ومصروف أختي لأسبوعٍ واحد!

لم يكن إياد راضيًا عن ذلك المحصول الضئيل، لكن أسماء أصرت عليه مجددًا حتى لا يقوم بطردنا...

بدأت عليا وعلاء ينشران في المدرسة، بل في القرية كلها، أنني أستغل إقامتي معهما في المنزل ذاته، وأسرق ما يحلو لي من أغراضه، وأقوم بالأمر ذاته في منازل القرية التي أعمل فيها. ولتلفيق تلك التهمة الشنيعة لي لجآ إلى بعض حِيَلهما لإثبات كلامهما.

كالعادة، لم أكن أودّ أن أوقع أسماء في المشاكل، وكنت في الوقت ذاته أراعي مصلحة أختي، فأي تصرف متهور أقوم به قد ينتهي بنا مشردتين.

لم يقف التوأمان عند هذا الحد، بل حتى تفوقي اتهماني بأنه لم يكن سوى نتيجة أسلوب غشٍّ محترف من فتاة لم تتربَّ إلا على السرقة والخديعة. وفي ظروفي الصعبة تلك لم أجد من يواسيني ويكون سندًا لي سوى صديقتي المقربة والوحيدة زمرد، التي كان التوأمان في تلك الفترة يعاملانها كما لو أنها جرثومة تخترق عالمهما وتفسد عليهما متعة الشماتة بي وأنا في أوج انكساري.

عدت في ذلك اليوم مستاءة من الشائعات المنتشرة حول سر تفوقي. كنت مرهقة من محاولة إثبات براءتي، حتى بات الاستسلام أسهل قرار قد أتخذه...

استغربت حين لم تستقبلني نور بهتافها وهي تحتفل بعودة "ماما دنيا" كعادتها.

دلفت إلى داخل المنزل بخطوات متعبة،

وجلت بنظري في أرجائه، فلم أرَ لها أثرًا. ثم سمعت صراخًا في إحدى الغرف وصوت تكسير بعض الأغراض.

اعتدت رؤية شجارات بين إياد وأسماء، لكن صراخهما لم يكن يعلو إلى هذا الحد من قبل. لم يكن موضوع شجارهما واضحًا لي، فلم أتمكن من سماع كلامهما رغم ارتفاع أصواتهما، ولم أكن مهتمة؛ فقد توقعت أن يكون الشجار حول إقامتي كالعادة.

ازداد استيائي حين سمعت أصوات الشجار، وازداد أكثر حين لمحت أختي محشورة في إحدى زوايا المطبخ، واضعةً يديها الصغيرتين على أذنيها وقايةً من الأصوات العالية.

هرولت نحوها وقلبي يكاد يقفز من

مكانه. وما إن رأتني حتى نظرت إليّ كما لو أنها كانت تائهة طيلة غيابي، باحثة عن الأمان. ثم سرعان ما أغمضت عسليتيها اللتين استوطنهما الخوف.

حاولت تهدئتها، وحين لاحظت أن أجواء المنزل غير ملائمة لذلك، حملتها متجهة إلى مكان هادئ تنسى فيه خوفها من تلك الأصوات.

— نور! — قلت وأنا أحاول إزالة يديها عن أذنيها، لكنها أبت. فقلت هامسة:

— نحن لم نعد هناك... انظري، لم يعد معك سواي... افتحي عينيك لترَي "ماما دنيا".

بعد الكثير من المحاولات فتحت عينيها، وجالت بنظرها في المكان، ثم ببطء أزالت يديها وارتمت في أحضاني

منهمرة في البكاء.
يومها فقط علمت أن نور تعي كل ما يحيط بها وتشعر به.
بعد أن هدأت، بقيت شاردة الذهن طويلًا، كما لو أنها في ذلك العمر أثقلت بالهموم فنضج عقلها قبل أوانه.
قلت مداعبة بعد أن تحسنت حالتها:
— والآن أين الـ...؟
وقمت بمدغدغتها...
— آآبرا كدابرا! أين ضحكة نور الصغيرة؟

حينها سمعت قهقهتها، وكانت كهمسٍ عميق يقول: مهما كان ما يحدث قاسيًا ومحزنًا، إلا أن كل شيء لا يزال على ما يرام ما دامت تلك الضحكة البريئة ترتسم وسط غمازتي نور.

احتضنتها وقلت:
— استقبليني بضحكتك هذه كل يوم، اتفقنا؟
ثم همست كما لو أنني أعترف لنفسي:
— فهي البلسم الشافي لكل جروحي، مهما بلغ عمقها...

بعد منتصف الليل، وبعد أن أيقنت أن كل من في المنزل قد نام، حزمت أغراضي وأغراض أختي، وأخذت كل ما سبق وحصلت عليه من جوائز عله يفيدني في المستقبل المجهول الذي ينتظرني.
حملت أختي وخرجت بخطوات حذرة قاصدة محطة القطار. كنت عازمة على السفر في أول قطار يمر مع حلول الفجر.

لكنني لم أمضِ سوى بضع دقائق حتى أفزعني صوت صرخات مستنجدة أوقعتني في حيرة. لم أدرِ إن كان عليّ العودة إلى بر الأمان، أم أستجمع شجاعتي وأتجه نحو مصدر الصوت.
لكن سرعان ما حُسم قراري حين اتضح الصوت وعرفت صاحبته.
لقد كان صوت زمرد... وأنا متيقنة من ذلك.
حملت أختي وركضت مسرعة نحو مصدر صراخها.

كلما واصلت العدو، تغلغلت أكثر في أعماق الغابة، وارتفع عواء الذئاب من حولي، وازدادت العتمة حلكة، إلا أن علمي بأن صديقتي في خطر كان كفيلًا بأن يمدني بشجاعة أتجاوز بها كل ذلك دون تردد.

توقفت حين رأيتها. كانت تركض باتجاهي، والرعب واضح في عينيها الزائغتين.
ما إن رأتني حتى طوقت عنقي معانقة لي، غير مكترثة بالطفلة التي أحملها، ثم انهارت باكية. بدت كمن عاش عمرًا من الجزع والخوف، وحين بلغ الضوء أخيرًا أطلق ما كتمه بالبكاء... بالبكاء فقط، ولا شيء سواه.
لم تستطع أن تنطق بحرف بين نحيبها، وأنا احترمت ذلك، واكتفيت بالتربيت على كتفها محاولةً أن أجعلها تشعر بأن لا شيء لتخافه الآن... فأنا لن أسمح لأحد أن يؤذيها.
وفجأة...
جاء ذلك الصوت المخيف من الخلف.
ضحكة مدوية.
ما إن التقطتها مسامعي حتى اقشعر

جسدي.
استجمعت شجاعتي ونظرت خلفي،
وقلبي يكاد يخرج من صدري.

كان فتى فارع الطول، ينسدل نصف
شعره الطويل على عينه اليسرى، بينما
تعلو عينه اليمنى ندبة كبيرة مخيفة.
يرتدي ملابس رثة مهترئة، خشن
البشرة، حافي القدمين، عريض
المنكبين، ويحمل في يده اليسرى خنجرًا
يكاد بطوله وحدّة نصله يكون سيفًا.
استطعت رؤيته بوضوح رغم الظلام.
أمسكت يد زمرد وضغطت عليها من
شدة الخوف، ثم همست متلعثمة:
— د... دقرج المكيد؟
— أجل... — أجاب ضاحكًا، ثم أكمل:
— ويا لحسن حظي الليلة! سأصيب
عصفورين بضربة واحدة... ولن يشهد

على موتكما سوى الظلام، وبالطبع لن يخبر أحد عن مكانكما...
ثم بدأ يخطو نحونا ببطء شديد.
وبالبطء ذاته، كنت أنا وزمرد نتراجع للخلف، استعدادًا للهروب.
وقبل أن يصل إلينا، أمسكت يدها وركضت بالاتجاه المعاكس، حاملة نور على كتفي، ولم نتوقف عن الركض حتى توارينا خلف شجرة ساقطة احتمينا بها.
وقبل أن نبتعد عنه سمعته يقول بنشوة:
— يا لحظي... يا لحظي... كم أحب مطاردة فريستي قبل الانقضاض عليها!

وما إن اختبأنا خلف الشجرة حتى سألتُ زمرد بصوت مرتجف:
— ما الذي يحدث؟
أجابت بعد أن توقفت عن البكاء:

لا أدري كيف وصل بي الأمر إلى هذا المكان، منذ عودتي من المدرسة اليوم وأنا أشعر أن أحدًا يلاحقني، لكنني تجاهلت ذلك الشعور معتقدةً أنه وهم، غير أن ذلك الشعور لم يفارقني لحظة، وحين حاولت الخلود إلى النوم ليلًا لم أستطع بسبب تلك الأصوات التي سمعتها في وقت متأخر من الليل، وحين لم أستطع تجاهلها خرجت من المنزل لأعرف مصدرها، لكنها بدت كما لو أنها تستدرجني إلى مكان ما، فكنت كلما لحقت بمصدر الصوت ابتعدت عن المنزل، ثم بعد فترة من بحثي عن مصدر الصوت تسمرت مكاني حين شعرت بأحدهم يقف خلفي مباشرة، شعرت بأنفاسه تلامس عنقي، فالتفتُّ بسرعة لأجده دقرج المكيد وهو...
لم تلبث أن تنطق كلمتها حتى سمعن

صوت خطوات تتجه نحوهن، فتوقفت عن الكلام وحاولن كتم أنفاسهن رغم خفقات قلوبهن المتسارعة. اقتربت الخطوات من مكانهن أكثر فأكثر حتى كادت تصل إليهن، لولا أن دقرج قرر البحث في مكان آخر وهمَّ بالعودة أدراجه.

وما إن استنشقت الفتاتان هواء الاطمئنان حتى استيقظت نور، وما إن رأت نفسها في الظلام وسط الأشجار همّت بالبكاء، فكتمت كلتاهما صوتها خشية أن يكشف مكانهن. بعد لحظات من الصمت لا يُسمع فيها سوى صوت أنفاسهن التي حاولن بكل جهدهن كتمها، وفي لحظة مفاجئة أطلَّ رأس دقرج من العدم ليفزعهن قائلًا بمرح:

أمسكت بكنّ!!

وما هي إلا لحظات حتى امسك
بشعيرات من رأس دنيا بعنف، ووضع
الخنجر على عنقها مهددًا زمرد بأن أي
حركة منها ستكلفها حياة صديقتها. اشتد
بكاء نور حين رأت أختها في تلك
الحالة، بينما أخذت زمرد تتوسل إليه
لعلّه يراعي وجود طفلة في المكان، ثم
بدأت تستدرجه في الكلام بكلمات
متلعثمة مرتعبة:
لماذا تفعل كل هذا؟ هل آذيناك بشيء؟
نحن نعتذر إن كان شيءٌ قد بدر منا دون
قصد، نحن...
قال يجيبها:
أنتن لم تتسببن بأذى مباشر، لكنكن كنتن
تعلمن ما تعنيه الصداقة لي، تعلمن أن
أحدًا لم يقبل مصادقتي بسبب شكلي
الغريب. كنتن على دراية بكل ذلك،
وعلى الرغم من ذلك حاولتن أذية
صديقي الوحيد، فهو صديقي قبل أن

يكون علاء.
ثم أكمل حديثه بسعادة عارمة:
لقد طلب مني صديقي الوحيد أول طلب في صداقتنا، ويستحيل أن أرفضه بعد كل هذا البحث عن الصداقة. لقد طلب مني أن أُبعدكن عن طريقه، لكنه — ثم ابتسم ابتسامة تشي بمرضه — لم يكن يعلم بأنني سأُبعدكن عن العالم بأسره.
استمعي يا هذه، مزاجي الآن معتدل للمفاوضة، سأعطيك فرصة للهروب.
لديكِ خياران:

الأول: أن أكتفي بقتل صديقتكِ هذه، وأسمح لكِ بالذهاب مع الطفلة، فصديقتكِ هي رأس الأفعى كما كان صديقي يقول...
أما الخيار الثاني: أن أقتلكن جميعكن،

وأترك الذئاب تكمل ما تبقى منكن بافتراسها، بل تنهش لحم تلك الطفلة الصغيرة.
لو كنتُ مكانكِ لاخترت الأول، فالثاني لا أتمناه لأعدائي.
بعد أن سمعتُ ما دار بينهما، صرخت في زمرد متوسلةً حين رأيت الحيرة في عينيها:
اتركيه ليقتلني إن شاء، سيكون ذلك أهون من أن تتأذى نور. خذيها واهربي بعيدًا عن هذا المكان أرجوكِ... لأجل نور أتوسل إليكِ.
ثم بدأت بالبكاء، وبادلتني زمرد ذلك البكاء وهي في حيرة من أمرها، وبعد لحظات حسمت أمرها فنطقت قائلة:
اقتلني أنا، فالطفلة لن تستطيع العيش دون أختها. اقتلني أنا، واسمح لصديقتي بالذهاب مع أختها...

لقد حصلت على زمرد بعد الكثير من المعاناة، ولن أسمح بأن أخسرها بأي ثمن، لذا صرخت في ذلك الوحش راجيةً منه قتلي بدلًا منها، إلا أنه لم يقتنع بكلام أيٍّ منا، وأخذ يفكر.
وفي لحظة خاطفة، دفعته بكل قوتي ليقع أرضًا ويسقط الخنجر بجانبه. وحين هممت بالتقاط الخنجر تعثرت فوقعت أرضًا، مانحةً إياه فرصة التقاطه، وحين هممت بالنهوض كان قد وجّه الخنجر نحو زمرد، وكان قد جثا فوق جسدها.

أسرعت باتجاهه وأمسكت بيده الممسكة بالخنجر ناويةً منعه من غرسه في قلب زمرد، التي كان رأس الخنجر متقابلًا مع صدرها، لكنني لم أستطع منعه. كان أقوى مني بكثير، كان في عمر علاء، إلا أن جسده كان أضخم وقوته أكبر.

وبينما أنا ممسكة بيده، غرس الخنجر في منتصف قلب صديقتي. تدفقت الدماء الدافئة على وجهي كالشلال، وفي لحظة خاطفة كان قد استل يده من تحت يدي ليلوذ بالفرار.

أصبحت يدي أنا الممسكة بالخنجر...

الخنجر الذي ينغرس في أعماق قلب صديقتي زمرد.

منذ ثوانٍ معدودة لا أكثر، كان المكان ممتلئًا بأصواتنا؛ كنت أحاول منع دقرج المكيد من فعل ما فعله، وكانت زمرد تصارع راغبةً في الحياة، وكانت أختي تبكي بحرقة.

الآن... لا شيء من كل هذا.

لم أعد أرى سوى تلك الغشاوة الحمراء التي غطت عينيَّ إثر الدماء. كانت الصرخة الأخيرة لزمرد تستقر في أذنيّ

وتأبى أن تغادرهما. تسمرت مكاني، لم يرتدَّ طرفي، يدي ممسكة بالخنجر لا أقوى على الحراك.
فجأة توقف كل شيء. كانت أختي نور ـــ ذات الثلاثة أعوام ـــ تقف على بُعدٍ مني وتبكي بحرقة، تدرك أن أختها ليست على ما يرام.

مرت لحظات كان الصمت القاتل هو كل ما يحدث فيها، قبل أن تحدث تلك الجلبة الكبيرة... أجل، لقد داهمت الشرطة المكان، وكنت لا أزال على وضعي ذاك، فألقت القبض عليّ...
لم يدم البحث طويلًا حتى عُثر على المنزل الذي كانت تقيم فيه دنيا مع أختها، وسرعان ما وصلت الأخبار التي استقبلتها برفضٍ قاطع لتصديقها. عادت نور وحيدة إلى البيت ذاته الذي خرجت

منه بين أحضان أختها. مكثت معها أسماء وقتًا طويلًا قبل أن تعود لمناقشة زوجها فيما حدث...

– وأخيرًا ظهرت حقيقة فتاة النحس تلك! انظري لما فعلته من كنتِ مُصرّة على إقامتها. كان عليكِ إخراجها من المنزل منذ البداية. حمدًا لله أن حقيقتها قد كُشفت قبل أن تُلحق الأذى بابنينا...

– قل كلامًا يصدقه العقل. أيُعقل أن دنيا، تلك التي لم تؤذِ نملة قط، تقتل صديقتها الوحيدة بهذا الشكل؟

– لا تقولي إنك تكذبين كلام الشرطة وتصدقينها هي! الجميع قد رآها وهي تغرس السكين في قلب تلك التي تسمينها "صديقتها الوحيدة". بالله عليكِ، اخرجي من عالم وهم الثقة وافتحي عينيكِ لترَي الحقيقة...

بدت أسماء غير مصدقة لما يقوله، رغم

أن الجميع كان على يقينٍ من تلك التي يدّعي أنها "الحقيقة". لم تكترث لكلام زوجها، بل اكتفت بأن قالت:

لن أصدق ذلك إن لم أسمعه منها. لا بد أن أتحدث مع دنيا...
وفي إحدى غرف منزلهم المتواضع كان كلٌّ من عليا وعلاء يتناقشان في الموضوع ذاته، لكن من جانبٍ آخر لم يُكشف عنه بعد...
مرت تلك الليلة كالأعوام على أسماء، التي لا تزال تحاول جاهدة تهدئة نور التي لا تكف عن البكاء، وعلى دنيا التي ظلت الصدمة مسيطرة عليها، حتى تلقت صفعة قوية أوقعتها أرضًا لتجد نفسها بين أربعة جدران...
دنيا:
قبل أن أستوعب أنني في السجن، أتت

الصفعة الأخرى لتعيدني إلى تلك
الذكرى المشؤومة؛ حين رأيت الخنجر
المنغرس في قلب زمرد، حين شعرت
بالدماء الدافئة المتدفقة منه، حين توقف
كل شيء من حولي، حين رأيت يدي
تمسك ذلك الخنجر اللعين...
عاد كل ذلك إلى ذاكرتي كما لو أنني لا
أزال أعيشه الآن بكل تفاصيله. لا أزال
أشتم رائحة الدماء، أراها تلطخ يديّ،
أرى يدي ترتجف رغم أنها لا تزال
ممسكة بالسكين، كأنها بذلك توقف
اختراقه للقلب.
كل ما حدث جعلني أحتار... أحتار على
ماذا يجب أن أحزن؟
على أختي التي غدت وحيدة بلا سند؟
أم على صديقتي الوحيدة التي فارقت
الحياة على يدي؟!
أم على حريتي التي سُلبت مني خلال

لحظة؟!
هذا كثير عليّ... كل هذا كثير عليّ.
لم أعد أشعر سوى به. أرى شفاه تلك السجّانة تتحرك، لكنني لا أعرف ماذا تقول. أرى ضرباتها تصل إلى جسدي، لكنني لا أشعر بها. صرخت في وجهي كثيرًا وضربتني حتى أبرحتني ضربًا. كانت ضرباتها لا تؤثر سوى على شكلي الخارجي، بينما روحي في أعماقها غارقة في الأحزان.

لم أعد أشعر بأي مما يحدث من حولي، وكأن عقلي يقول:
كفاكِ ما عشته، لم يعد باستطاعتك التحمل...
فأخذ استراحة له. لم يعد يرسل لي إشارة أن جسدي يتعرض للتعنيف، لكن ماذا عن قلبي؟ يأبى أن يكتفي من

الأوجاع، ويبقى شعوره مستمرًا حتى يقتلني في كل نبضة.
سئمت السجّانة مني، فخرجت من زنزانتي وقد أفرغت كل ما في جعبتها... تركتني مرمية في ذلك المكان المظلم الضيق المغلق؛ مكان هو أحرى بأن يُقال عنه قبر.
تركتني متكوّرة أتأوه ألمًا، ألمًا ليس سببه تلك الكدمات التي كست جسدي، بل تلك الوخزات التي ملأت قلبي بالثقوب الدامية. لم يعد ذرف الدموع ولا الصراخ يخففان من ألمي.
"أشدُّ أنواع الألم ذاك الذي تتحجر فيه الدموع"...
ذاك الذي تتمنى فيه أن تصرخ لكنك لا تستطيع، وكأنه يحرمك تلك الصرخة لعلها تخفف عنك!
كنت منكمشة على سطح بارد، عكس

قلبي المشتعل، لكن نيرانه لم تخمد، بل جعلها الجفاء تفقد الدفء. كنت وحيدة كما لم أكن من قبل، نوع جديد من الوحدة، ثقيل كالجبال، ويزيده ثقلًا تأنيب الضمير.
كانت ليلة طويلة... أطول من أي ليلة قضيتها في حياتي.
كانت تفزعني فيها الكوابيس من وقتٍ لآخر، بينما الحزن والندم يتآكلانني، لكن على مهل، لعل سرعة قضائهما عليّ تخفف عني.
كان قلبي المجروح ينزف دماءه على ذلك السطح دون أن يأبه به أحد.

حل الصباح أخيرًا معلنًا نهاية تلك الليلة، لكن حتى الشعور بانقضائها حُرمت منه، فأشعة الشمس لم تتسلل إليّ خلسة كعادتها، بل كان الظلام لا يزال مهيمنًا

على المكان، قبل أن يصدر الإعلان الذي يليق بي.
صرخت السجّانة بعنف متعجرف:
هيا انهضي... لديكِ زيارة.
(علاء & عليا)
– لا أزال غير مصدق أن المسألة وصلت إلى القتل والسجن... لم أكن أُرِد منه سوى إخافتهما.
– ماذا تقصد؟
– أتذكرين يوم طلبتُ منك إقناع دنيا بالرحيل؟ كنتُ أخطط لأن يتعرض لها دقرج ليخيفها كي لا تفكر في العودة مجددًا، لكن... كانت الأمور تسير حسب الاتفاق، إلى أن همَّ بالقتل، خرجت الأمور عن سيطرتي. لا أعلم ما الذي عليَّ القيام به؛ فإن اعترفتُ سأكون في مكان دنيا الآن، وفي الوقت ذاته لا يمكنني كتم سرٍّ خطير كهذا...

– أنت لست من قتل، وهذا الأهم، ودقرج اختفى منذ الحادثة، لا أحد يعلم بالأمر سواكما، لذا دع الأمور تسير كما هي، ولا تلفت الأنظار حتى لا يُكشف الأمر...

صاحت أسماء:

– علاااء، تعال كي لا نفوّت وقت الزيارة!

همَّ علاء بالرفض قبل أن تقول أخته بحدّة:

– تصرّف بشكل طبيعي...

كادت رؤية نور أن تشعل شعاع فرحٍ بسيط في قلب دنيا المدمَّر، فركضت باتجاهها بكل ما تبقى لها من قوة.

ركضت بلهفة وشوق. وقف كلٌّ من أسماء وعلاء يراقبان كيف دخل السرور إلى قلب دنيا فور رؤية أختها الصغيرة،

وكيف استعادت حيويتها بعد أن كانت شبه جثة، تمشي مكبلة الأيدي، مشوّهة الملامح، مكتسية بآثار الضرب، تمشي دون أن تمشي، وقلبها ينبض دون أن ينبض، إلى أن عثرت على روحها المفقودة.

حملت أختها، احتضنتها، وأخذت تقبّلها كالأم التي استعادت ضناها بعد أن ظنت أنه قد فارق الحياة. أخذت تتفحصها من كل مكان علَّ مكروهًا قد أصابها، ثم أخذت تُمعن النظر في عينيها، وكأنها بذلك تحفرهما في ذاكرتها فتستنير بهما في عتمتها.

قطع تأملها صوت إحدى الموظفات وهي تقول بحدّة:

– خمس دقائق فقط...

أشارت أسماء لعلاء بأخذ نور، التي تشبثت بها دنيا بقوة رافضة تركها،

وحين لم تجد سبيلًا لذلك الفراق الثقيل على صدرها، أخذت توصي بها علاء متجاهلة كل ما سببه لها.
اتجهت أسماء نحو دنيا، بعد أن قذفت وابلًا من الشتائم على السجّانة التي قامت بضرب دنيا، والتي لم تُلقِ بالًا لكلامها.
– كيف حالك يا ابنتي؟
قالت وهي تتحسس الجروح التي غطت معظم جسدها، ثم سألت بعد أن رأت برود دنيا:
– أتؤلمكِ؟
دنيا:

كنتُ وقتها أود الحديث عن كل ما يؤلمني، ليس تلك الجروح، بل أخرى مخفية مدفونة في أعماقي، تنهش بداخلي وتنتشر كالسم. أود الإفصاح عن ذلك

الشعور لعلّه يخف، لكن ليس لها... ليس لأنها لا تصلح لذلك، بل لأن ظروفها لا تسمح، وإن حاولت هي التمرد على تلك الظروف، أنا لا أستطيع. لا يمكنني أذيتها هكذا ببساطة، لأنني أعلم جيدًا كم هو صعب أن تُخذَل، وأنا لا أود أن أريها خذلان ابنها.

فاكتفيتُ بإيماءة خفيفة بـ"لا".

رغم أنني لم أحدثها عن أوجاعي، لكنها رأتها... رأتها كما كانت أمي ترى أسراري في عينيَّ.

عانقتني تعبيرًا عن كونها بجانبي. كنت بحاجة إلى ذلك الحضن. كنت أتجنب معانقتها منذ ذلك الموقف المحفور في ذاكرتي بعد الاختطاف، لكنني اليوم بحاجة له، بحاجة لأن أجهش بالبكاء على كتفها، لكنني لم أفعل، اكتفيت بذلك العناق... ربما لا يحق لي غيره.

الشعور لعلّه يخف، لكن ليس لها... ليس لأنها لا تصلح لذلك، بل لأن ظروفها لا تسمح، وإن حاولت هي التمرد على تلك الظروف، أنا لا أستطيع. لا يمكنني أذيتها هكذا ببساطة، لأنني أعلم جيدًا كم هو صعب أن تُخذَل، وأنا لا أود أن أريها خذلان ابنها.

فاكتفيتُ بإيماءة خفيفة بـ"لا".

رغم أنني لم أحدثها عن أوجاعي، لكنها رأتها... رأتها كما كانت أمي ترى أسراري في عينيَّ.

عانقتني تعبيرًا عن كونها بجانبي. كنت بحاجة إلى ذلك الحضن. كنت أتجنب معانقتها منذ ذلك الموقف المحفور في ذاكرتي بعد الاختطاف، لكنني اليوم بحاجة له، بحاجة لأن أجهش بالبكاء على كتفها، لكنني لم أفعل، اكتفيت بذلك العناق... ربما لا يحق لي غيره.

دام العناق طويلًا، لكنني تماسكت ولم أبكِ.
سألت باهتمام بالغ واضح في عينيها:
– كيف آلت بكِ الأمور إلى هنا؟
– لا أدري!
هكذا أجبت. لا أدري حتى إن كنت بريئة أم لا.
أردت أن أظهر لها أنني قوية، لكن كيف؟
باليقين... هكذا أجبت نفسي.

لم يكن "اليقين" اسم أمي فقط، بل هدية وهبتني إياها منذ ولادتي، فقلت مسترجعة ذاك الذي علمتني إياه أمي:
لقد وكلت أمري لمن لا تضيع ودائعه، أنا على يقين أن حقي بين أيادٍ أمينة، وسيعود لي إن كان ذاك ما يشاؤه ربي...

بدت مسرورة بذلك الجواب، ومندهشة من ناطقه. لقد رأيت في عينيها وقتها شيئًا أدخل السرور إلى قلبي ما إن لمحته... لقد كان فخرًا.
فخرًا لم أره من قبل، رغم كل جوائزي. سررت لذلك، وسررت أكثر حين علمت أنها تؤمن ببراءتي كما لم أؤمن أنا بها.
قلت موصية لها بأختي:
أرجوكِ، اعتني بنور، عينيَّ اللتين تقيمان في بيتكِ. لم يبقَ لي سواها. أقلق عليها، فاعتني بها جيدًا، وحاولي ألا تشعريها بما حصل، فهي حساسة وتكشف الحزن رغم عمرها...
كان التأثر واضحًا عليها حدّ البكاء، لكنها لم ترد، فوقت الزيارة كان قد انتهى. لم أكن بحاجة إلى إجابتها، فقد وعدتني بعينيها قبل أن تغادر، ثم أعادتني إحدى العاملات إلى زنزانتي...

فور خروج أسماء، ودَّ علاء لو يسألها عمّا قالته، خشية أن تكون قد كشفت أمره، لكن ملامحها كانت مطمئنة له، كما أنه لم يُرد إثارة شكوكها، رغم أن ثقتها ببراءة دنيا تقلقه...

مرت الأيام، ودنيا لا تزال محتجزة ظلمًا بين تلك القضبان، وأختها لم تنسها قط، لا تزال مفتقدة لها، مشتاقة إليها، وحزينة على فراقها، وأسماء لا تزال على يقين من براءة دنيا، وفي كل مرة يسألها أحدهم عنها تكتفي بأن تقول: "إن الله مع تلك الطفلة، سيعيدها بريئة بإذنه."

القلق لا يزال يتفاقم في قلب علاء، ترعبه فكرة أن ذاك المريض لا يزال حرًّا طليقًا بعد حادثة زمرد. صارت

الهواجس تداهمه، يخشى أن يتأذى أحد أحبته على يد ذلك القاتل.

لا بد أن دقرج الآن أدرك أنني قمت باستغلاله بعد أن مرّ كل هذا الوقت دون أن أحدثه، ولا بد أنه أدرك أنني من قام بتبليغ الشرطة ليلة الحادثة، فلم يكن يعلم بها سوانا. لقد خشيت ليلتها أن يوقعنا في مأزق لا يمكننا الخروج منه، وقد حدث ما خشيت. شعرت في اللحظة الأخيرة أن ما قمت به كان خاطئًا، فدقرج ليس شخصًا يمكن الوثوق به، والخطأ الفادح الذي اقترفته أنني لم أدرك تلك الحقيقة إلا بعد فوات الأوان... أدركتها في وقت متأخر جدًا.

بعد ما يقارب الأسبوعين، التقى علاء أثناء عودته بأكبر مخاوفه في الفترة الأخيرة... التقى بدقرج المكيد.

– أختي، عودي إلى المنزل...

– لكن أخي...
كانت عليا مرتعبة من رؤية ذلك المريض وهو يتقدم نحو أخيها، لكن كلماته كانت حاسمة حين قال بنبرة لا تقبل النقاش:
– أختي، عودي إلى المنزل على الفور.
فلم تجد بدًّا من تركه رغم قلقها عليه.
كان علاء يعتقد أن دقرج قد كشف استغلاله له، لكنه فاجأه حين قال:

– لقد تخلصت من الفتاتين كما طلبت، لمَ لا أراك مسرورًا لذلك؟
كان علاء يود تجنب المشاكل مع ذلك المريض، لكنه سرعان ما وجد نفسه يقول بانفعال:
– مسرور؟ أترى أن فعلتك تدعو للسرور؟ لقد تسببت في قتل الفتاة وسجن الأخرى، ولا تزال غير مدرك خطورة

وقسوة ما فعلته؟ الآن فقط اتضح لي أن ما قيل عنك هو حقيقتك... أنت وحش مريض لا يمكن أن يكون صديقًا لأحد!
لم يدرك علاء قسوة كلماته على دقرج حتى اصطدم بردة فعله، التي كانت أشبه بهستيريا مريض نفسي، فبدأ يصرخ في وجهه بانفعال:
– لقد فعلت كل ما فعلته لأجلك! لم أكن أود لأحد أن يضايقك لأنك صديقي، وهذا ما يفعله الأصدقاء! والآن... لا يمكنك قول ما يقوله غيرك! أنت لست كغيرك، أنت صديقي! إن كنت خائفًا من السجن فلن أسمح بسجنك، يمكنك العيش معي في المخبأ الذي قمت بتجهيزه لأجلنا... أرجوك لا تكن كغيرك، أود صديقًا حقيقيًا... أنا...
قاطع كلامه صوت سيارة الشرطة وهي تقترب من المكان، فتحول انفعال دقرج

المكيد إلى خيبة أمل كبيرة انعكست على ملامحه المشتتة ودموعه المتدحرجة على وجنتيه. لطالما بحث عن صديق حقيقي، والآن بعد أن ارتكب جريمة قتل لأجل صديقه، ها هو يقوم بطعنه بخناجر الخذلان بلا رحمة.

هنا تغلب غضبه على هوس الصداقة، ولم يُرِد سوى الانتقام ممن قام باستغلاله، فقال بنبرة تهديد وهو يلوذ بالفرار:

– ستدفع ثمن خيانتك لي، أنا أعدك. كن جاهزًا لرؤية ما سأفعله بك وبأغلى ناسك. كن في الانتظار، فقد فتحت أبواب جحيمك... كن في انتظاري!

كانت تلك الكلمات كفيلة بأن تشعل نار الخوف في قلب علاء، ليتآكله الندم، وسؤال واحد يخطر بباله الآن:

– هل اتصل أحدهم بالشرطة، أم أنها

كانت مصادفة؟
وربما الجواب ينتظره في المنزل...
فور عودته، رحبت به أخته بلهفة من ظن أنه لن يراه مجددًا، ثم أفصحت له عن كونها هي من اتصل بالشرطة، لكنه لم يتوقع ردة فعله، فقد انفجر غضبًا وصرخ فيها بنبرة لائمة:
– أتعلمين أن بفعلتك قد عرضتِ حياتنا للخطر؟ فقد أثرتِ غضب ذلك المريض رغم علمك بخطورته! لا بد أنه سيكون ثائرًا الآن، فقد لعبنا على وتره الحساس حين قمنا باستغلال هوسه بالصداقة. لا يمكن توقع خطوته القادمة، فهو مريض متوحش مجرم، وسيصب جام غضبه علينا لا شك...
بعد تلك الكلمات، انتقل شعور الخوف ذاته الذي يشعر به إلى أخته، التي ظلت تفكر في كلامه قلقة ومرتعبة مما قد

يفعله بهم دقرج، وذات الشعور يداهم علاء، الذي ظل، كأخته، يلاحقه هاجس أن يحدث معه كما حدث لزمرد، أو كما حدث لدنيا. كان كل منهما خائفًا على الآخر وعلى نفسه في الوقت ذاته...

دنيا:
تمر أيامي في الظلام بلا جديد، كل يوم لا يفرق عن غيره بشيء، سوى ذلك الأمل الذي يتجدد في كل يوم... أملٌ في أن أرى أشعة الشمس يومًا ما، أملٌ في أن أعود لتحقيق أحلامي، أملٌ في أن أعود لأختي.
ليتني أراها لتنتشلني مما أنا فيه، فوالله برؤيتها سيتلاشى كل ما أشعر به من أسى... أختي...

في كل حرف من حروف اسمك تختبئ حكاية حب لا تنتهي...

الألف: لأنك أغلى ما أملك، وأثمن كنز وهبني الله إياه، وأجمل ما خطّه القدر في سطوري.

الخاء: لأنك خيري في وسط هذا العالم المليء بالشرور، وخلاصي حين تضيق بي الدنيا، وخاتمة أحزاني التي لا تنتهي.

التاء: لأنك تحتويننني بكل ما فيك، وتفتحين لي ذراعيك كلما تقطعت بي السبل، وتبعثين السكينة في روحي بنظرةٍ من عينيك.

الياء: لأن صوتك وحده يذيب جبال الهموم، ويمحو غبار الحزن عن قلبي في لحظة...

هذه أنتِ يا أختي، يا نبضي حين يتعب قلبي، يا ملجئي حين تغدو الحياة موحشة...

إياكِ أن تنسي هذه الكلمات ما حييتِ، حتى لا تنسي كم تحبك أختك، كم ترتبط حياتها بكِ بخيط متين من الوجود لا يمكن قطعه.
كانت هذه رسالتي لكِ دائمًا، أرددها في ختام كل حكاية أهمسها إليكِ، كي لا تشعري يومًا أنكِ وحدكِ وسط هذا العالم البارد.

آخر مرة كنتُ محتجزة فيها لم يكن يوجد من ينتظر عودتي، لكن الآن وحدها فكرة أن أختي في انتظاري تجعلني أؤمن أن النور يختبئ في الظلام الذي أعيشه، أؤمن أن هناك من يمهد لي طريقًا للعبور...
لا يزال توتر كلٍّ من علاء وعليا في تزايد، فبدأ يلحظه كلٌّ من أسماء وإياد، وعندما سألهما كلٌّ منهما، لم يكن منهما

سوى أن جعلا من ضغط الدراسة سببًا لقلقهما.
فأخذ إياد ينصحهما قائلًا:
لا تقلقا يا ولديَّ، فكل ذلك القلق سيتلاشى حين تجنيان ثمرة تعبكما.
استشعرا النعمة التي أنتما فيها الآن، ألا ترون ما حدث لدنيا وكيف تدمر مستقبلها؟ ما عليكما الآن فعله هو استغلال الوقت الذي حُرم منه غيركما، كونا حريصين ألا يضيع تعبكما هباء.
"فالوقت أثمن من أن يُضيع هباء."
كانت تلك الكلمات كفيلة بأن تشعرهما بالذنب الذي اقترفاه، وعلى الرغم من ذلك ظل الخوف مسيطرًا عليهما.
كان من السهل إقناع إياد بذلك العذر، بينما يستحيل إقناع أمهما، فقد كان قلبها يخبرها أن وراء ذلك القلق سببًا أكبر من

أن يكون ضغط الدراسة لا غير، وفي ذات الوقت لم تُرد أن تضغط عليهما، فاكتفت بأن قالت:
أعلم أن ما تقولانه ليس الحقيقة، لكن تذكرا دائمًا أن أمكما على أتم الاستعداد للاستماع إليكما مهما كان ما يثير قلقكما. همّي الوحيد في هذه الحياة هو فهمكما وجعلكما سعيدين. عندما تشعران أنكما مستعدان لإخباري، فلا تترددا في ذلك، سأكون في انتظاركما إلى ذلك الحين.

بعد كلام أمهما، قرر علاء إخبارها بكل شيء، غير أن أخته لم تكن توافقه الرأي، فمنعته من ذلك، مُذَكِّرةً له غضب إياد على دنيا لما فعلته وكرهه لها، وكيف سيكون غضبه عليهما لو أنه علم بالأمر. فلم يكن منه إلا أن تراجع، خشية ألا يسامحه أبوه...

كانت الإشارات تتوالى لتتيح لهما فرصة الاعتراف، لكنهما تجاهلاها، فكان لا بدّ من حدوث أمرٍ يجعلهما يعترفان، شاء أيٌّ منهما أم أبى...

في ليلةٍ ظلامها حالك السواد، تسلّلت إلى مسامع عليا تلك الأصوات المريبة التي أثارت قلقها أكثر مما كانت عليه، فخرجت من منزلها محاولةً إخفاء خوفها لتكتشف مصدر تلك الأصوات، وتسير على خطى زمرد...

في حين كانت الكوابيس توقظ علاء من وقتٍ لآخر، وفي كل مرة يرى ذات الكابوس: يرى أحدهم يطعن قلب أخته بعنف حتى تتلطخ الدماء بهما، وحين يحاول إنقاذها تخرج الكثير من الأيادي من العدم فتقوم بتثبيته، بينما يولد من

الظلام شخصٌ آخر لم يتضح منه سوى الفأس التي يحملها. يرى أخته تمدّ له يدها المتقطرة دمًا مستنجدةً به، وتلك الأيادي لا تزال تمسكه بكل قوتها، وفي لحظةٍ من لحظات يأسه يضرب ذلك الشخص، الذي وُلد من الظلام، عنق أخته بتلك الفأس الضخمة حتى يتدحرج رأسها ليصل إلى قدميه.

فيصرخ صرخةً مدوية لرؤيته تلك الفاجعة، فيستيقظ مفزوعًا من ذلك الكابوس المروّع، والعرق يتصبب منه كما لو أنه خرج من بركة ماءٍ للتو.
تكرر ذلك الكابوس أكثر من مرة، فهجرت عيني علاء النوم.
وليعيد الاطمئنان إلى قلبه أراد تفقد أخته، لكنه تسمر عند عتبة باب غرفتها

حين لاحظ غيابها، ورأى تلك الدماء التي رسمت طريق الخروج من الغرفة. فتتبعها إلى أن رأى طيف أخته وهي تبتعد عن المنزل، ثم رأى ذلك الشخص الغريب يلحقها حاملاً فأسه الضخمة، ذات الفأس التي رآها علاء في الكابوس. وقبل أن ينطق علاء ليحذر أخته، كان ذلك الشخص قد ضربها بفأسه لتقع أرضًا صريعة. وحين التفت الشخص الغريب، إذا به دقرج المكيد نفسه!

ذهل علاء حين رأى تلك الملامح، ومن هول صدمته لم يستطع تصديق ما رآه، فحنى رأسه ضاغطًا على أذنيه وأغمض عينيه، ثم صرخ بأعلى صوته: لا... لا يمكن أن يحدث هذا! وحين فتح عينيه، إذا به لا يزال عند عتبة باب غرفة أخته، وكل ما رآه كان من نسج خياله، فتنفّس الصعداء حمدًا لأنه لم يكن

حقيقة...
لا تزال عليا تتبع تلك الأصوات الغريبة، تتوالى خطواتها خلف مصدرها، حتى ذلك الظل الذي لم تستطع تمييزه.
اقتربت منه أكثر فأكثر، حتى اتضحت لها رؤيته، فلاحظت أنه يحمل شيئًا لم تستطع تمييزه إلا حين أصبحت قريبة منه، ليتضح لها أنه كان يحمل فأسًا. بدأ الخوف يتفاقم بداخلها، وبدأت التساؤلات تداهمها: هل تكمل سيرها نحو المجهول؟ أم أنها بذلك تلحق نهايتها؟ هل تعود أدراجها؟ أم تكمل لتكشف ما تخبئه تلك العتمة؟

وقبل أن تحسم أمرها، تقدم ذلك الظل باتجاهها، فبدأت تعود بخطوات بطيئة

إلى الخلف، ثم أخذت تركض هاربةً منه مطلقةً صرخات استنجاد وصلت إلى أخيها الذي لا يزال عند عتبة الباب.
فركض مسرعًا نحو مصدر الصوت، وما هي إلا دقائق حتى اصطدم كل منهما بالآخر، حين لم يعد يفصل بينهما سوى أقدام قليلة.
انقضّ ذلك الظل عليها كالوحش المفترس، ووضع الفأس الحادة على عنقها. عندها توقفت جامدةً كأن جسدها قد شُلّ، ولم تنبس ببنت شفة حين علمت أن الظل هو دقرج المكيد، وأيقنت أن تلك نهايتها...
حاول علاء التقدم نحوها، إلا أن دقرج ضغط على عنقها حتى سالت الدماء منه محذرًا إياه، فتوقف مكانه مستسلمًا، ثم انحنى على ركبتيه وأخذ يتوسل إليه كي يترك أخته.

ضحك دقرج ضحكةً مدوية، ثم قال
بابتسامته المريضة: "ما رأيك الآن؟
ضربةٌ واحدة من فأسي ستسقطها ميتةً
كتلك التي تلقتها زمرد، أتذكر؟ يستحيل
أن تكون قد نسيت. سيكون مصير أختك
كمصير صديقة دنيا، ولا أحد يمكنه منع
ذلك."
قال علاء وسط بكائه متوسلًا: "لا... لا
تفعلها أرجوك..."
فصرخ دقرج في وجهه صرخة أرعبته
وأرعبت أخته: "بل سأفعلها! أنت من
اخترت هذا، أنت من اخترت أن تكون
عدوًا لي، وسأريك الآن معنى أن تكون
عدوًا لدقرج المكيد!"
ثم أسقط عليا أرضًا ورفع الفأس ليجثو
بها عليها...
فانهار علاء باكيًا ومتوسلًا، ثم أخذ
يقول:

"ماذا حدث لك؟ أنا لم أعهدك هكذا. لقد كنتَ صديقي المقرّب، كيف تغيّرت؟ أشعر أنني لا أعرف الشخص الذي يقف أمامي الآن. لقد تحوّل صديقي الملاك إلى عدوّي الشيطان. هذا ليس أنت يا دقرج، أرجوك أعد لي صديقي الذي عهدته، أعد لي دقرج الذي أعرفه. بماذا أحلف لك كي تصدّق أن لا علاقة لي بقدوم الشرطة ذلك اليوم؟ متى وصل بك كرهك لي إلى هذا الحد؟ أرجوك اتركها لأجل صداقتنا..."

بدا دقرج متأثرًا لوهلة بكلام علاء، ثم صرخ صرخةً جعلت عليا ترتجف وتبكي وتلهث، متسارعة أنفاسها، ونبضاتها تكاد تتوقف، متيقنة أن تلك لحظاتها الأخيرة.

فقال دقرج وهو يحمل الفأس مجددًا:
"لن أسمح لك بخداعي ثانيةً..."
وجثا بالفأس قاصدًا عنق عليا التي فقدت الوعي من فورها. لم يتحمل علاء رؤية ذلك، فأغمض عينيه صارخًا، مغطّيًا أذنيه، غير مصدّق لما حصل. وبعد ثوانٍ ساد صمتٌ رهيب، فعاد ليفتح عينيه، فإذا بالفأس مغروسة في الرمال قرب عليا دون أن تمسّها بأذى.
فرفع نظرات الامتنان نحو دقرج، الذي كانت الخيبة جلية على وجهه، وهو يقول:
"لقد أعدتَ الخطأ ذاته، واستغللتَ صداقتنا لأجل مصالحك..."
ثم عاد أدراجه حتى ابتلعه الظلام مجددًا. شيّعه علاء بنظراته حتى اختفى من نطاق رؤيته، ثم ركض نحو أخته يتفقد

أحوالها، وحاول إيقاظها لكنها لم تستجب.

استيقظت أسماء مفزوعة، وشعور القلق ينتابها، فاتجهت إلى غرفتي ابنيها لتتفقد أحوالهما، لكنها قبل أن تفعل ذلك رأت علاء يحمل أخته الغائبة عن الوعي، فرأت سبب قلقها جليًا في حال ابنتها.
مضت فترة ولم تعد عليا إلى وعيها، ولم يعطِ علاء أي تفسير عمّا حدث. وحين عادت إلى وعيها لم تستطع استيعاب ما جرى، فظنت أن دقرج قد قتلها ثم قتل أخاها ووالديها، وأنها الآن مع أهلها في عالم ما بعد الموت. فبدأت بالنواح فورًا، وأخذت تلقي اللوم على نفسها وعلى أخيها، وتطلب السماح من أبويها على ما

تسببا به، وبدأت تقبّل يديهما وتتفوه بكلام غير مفهوم، حتى ملأت رأسيهما بعلامات الاستفهام.
كان لا بد لعلاء أن يعطي تفسيرًا لما تقول، فأخبر أسماء بكل ما حدث منذ استغلاله لدقرج وحتى غياب عليا عن الوعي. ولم يلبث إياد أن سمع بذلك حتى استشاط غضبًا، وأطلق وابلًا من الشتائم نحوهما، ثم أخذ يصرخ معاتبًا لهما.
بينما اكتفت أسماء بأن قالت بخيبة أمل:
"لا أصدق أنني أنجبت طفلين بهذه القسوة. لا أصدق أنكم تسببتم في قتل طفلة وسجن أخرى. ماذا عن تلك الطفلة المسكينة؟ ألا يرى أيٌّ منكما كيف غادرت الابتسامة شفتيها البريئتين؟ وكيف استوطن الحزن قلبها الصغير؟ ألم يرأف بحالها أيٌّ منكما؟ أوصلت بكم

غفوة ضميركما إلى أن تفعلا مثل هذا الفعل القاسي؟ لقد أضعتم أعوامًا من التربية وحولتموها إلى سراب. لقد غرستم سهام الخذلان في قلبي بلا شفقة، بعد أن أعطيتكما أيامي منذ ولادتكما..."

ولم تُنهِ كلامها حتى بدا زوجها كالبركان؛ كانت الشرارة تتطاير من عينيه كالحمم، ويكاد المرء يرى الدخان يتصاعد من أذنيه وهو يقترب من أبنائه. وقبل أن يصل إليهما، تشنجت أطرافه واشتد الألم في صدره، وانعكس غضبه على صحته، فتعرّض لسكتة قلبية من فوره.

وحين همّت أسماء بأخذه إلى المستشفى واحتاجت إلى مساعدة علاء، كانت عليا لا تزال غارقة في وهمها، فهمست

لأخيها تسأله:
"أين تودّون أخذه؟ لا توجد مستشفيات
في عالم ما بعد الموت!"
لم يكن علاء في حالة تسمح له
بالضحك، بل همّ بتجاهلها، لولا أن قالت
له أسماء:
"ابقَ أنت هنا للاعتناء بأختك وبنور،
وسأتدبر أنا أمر نقله إلى المستشفى."
لم تقتنع عليا أنها لا تزال على قيد الحياة
إلا حين أخبرها علاء بكل ما حدث،
فأخذت تلوم نفسها على كشفها لحقيقتهما.
وبين جدران ذلك المنزل كانت تلك
الطفلة التي لا تفهم من كل ما يحدث
سوى أن غياب أختها قد طال، وأن
شعورها بعد فراقها هو ذات شعور اليتم
الذي شعرت به دنيا حين فقدت أبويها،
بينما كانت دنيا تعاني أضعاف ذلك الألم
بين جدران زنزانتها الضيقة...

دنيا:

أقضي جلّ أوقاتي في إحدى زوايا تلك الزنزانة المظلمة. لطالما اعتدت أن أشتاق لأمي وأبي، لكنني لم أعتد أن أشتاق لأختي وحريتي ودراستي. كان ذلك كل ما أملك، وها أنا الآن أفقده كما فقدت أهلي. وشعور بتأنيب الضمير ينتابني لأول مرة. ندمت على تقربي من زمرد، لم أكن أعلم أن ما كانت عليا تقوله حقيقة. لم أكن أعلم أن قربي من أحد قد يكلّفه حياته.

أتساءل إن كنت سأعود يومًا لما كنت عليه؟

أتساءل إن كانت هذه نهايتي؟

أتراني أجد ذاك المسمى بالنور في آخر النفق؟

أيكفي نور شمعة أملي الخافت لينير

الظلام الذي أحاط بي؟
أتكفيني الإرادة لتخطي هذه المحنة؟
تتوالى تلك الأسئلة دون أي إجابة، عدا
إجابة واحدة تضج في عقلي:
"لن أرى شروق الشمس بعد الآن."
بدأت أفقد الأمل...
بدأت قواي تخور...
بدأت طاقتي تنفد...

(حالة دنيا الآن أشبه بمن هو محصور
في منزلٍ بستانه ذو أشجار سامة،
ومياهه امتزجت بالدموع فطغت عليها،
محاط بالوحوش المفترسة التي تكاد
تنقض عليه في أية لحظة. تحفّه الأشرار
من كل مكان. ستائر منزله كالأفاعي
اللادغة الغادرة، وأبوابه ونوافذه تفور
منها الحمم كالبراكين... فهل سيكون له
سبيل للنجاة؟ وهل تطرق له الطمأنينة

بابًا بعد أن استوطنه الرعب؟ هل
سيتخطى ما تقف الإرادة البشرية عاجزة
عن تخطيه؟ أجل، يستطيع... إن كان
على يقين أن بين الكاف والنون ما هو
كفيل بتغيير حياته عقبًا على رأس.
يستطيع إن آمن أن الصراط وإن كان
بالنيران إلا أنه يوصل إلى الجنة.
يستطيع إن سطع نور ذلك الإيمان
بداخله وأنار له طريق العبور. أبشري يا
دنيا، فبين الكاف والنون ما هو كفيل
بإعادة كل شيء أفضل مما كان عليه.)
بعد تعرض إياد لتلك السكتة القلبية لم
تعد صحته كما كانت، بل اشتد به
المرض حتى لازم الفراش. كان الشعور
بالندم ينهش بداخله لظلمه تلك الطفلة
البريئة، وأضعاف ذلك الندم كان يتآكل
ابنيه اللذين حاو لا إصلاح ما أفسداه بعد

إصرار أمهما.
فقدّم كلٌّ منهما شهادته لإثبات براءة دنيا، إلا أن شهادتهما لم تؤخذ بعين الاعتبار إلا بعد إلغاء القبض على دقرج المكيد.
وخلال فترة البحث عنه كان الاعتناء بنور سبيلهما للتكفير عن ذنبهما.
وبعد عدة أسابيع، ومع اقتراب نهاية السنة الدراسية، تم إلقاء القبض على دقرج المكيد. وبعد التحقيق معه، اكتُشف أنه هو من كان وراء الحادث، وأن مرضه النفسي المسمى بالفصام كان السبب في اضطراب عقله؛ فبينما كانت إحدى شخصياته الطيبة تبحث عن أصدقاء، كانت الأخرى المتوحشة تميل إلى العنف والإجرام، مما تسبب في إيذاء أشخاص آخرين غير زمرد.
وبعد إثبات براءة دنيا، تم إطلاق سراحها...

دنيا:
ها قد رأيتُ شروق الشمس الذي فقدتُ الأمل في رؤيته... رأيتُه حرّةً كما لم أكن منذ أشهر. وتظل رؤيتي له شيئًا، ورؤيتي لأختي شيئًا آخر. رأيتُ أختي... رأيتُها بعد أن كادت نيران الشوق إليها تلتهمني في الأشهر الماضية. كان وجهها شاحبًا كما لم أعهده، وكان الهزال قد تمكّن منها خلال فترة غيابي.
كانت أشهر سجني كفيلة بتغيير تلك الطفلة التي لم تكمل عامها الرابع بعد. ورغم أنني لم أرَ المرآة منذ سجني، فإن أختي لم تكن سوى انعكاسٍ لي. ما إن لمحتُ طيفها حتى هرولتُ نحوها بلهفة أمٍّ كادت تفقد وليدها. ضممتُها إلى صدري كما لو أنني أردتُ إخفاءها في

أعماقي خشية فراقها مجددًا. استنشقتُ عبيرها، ذاك الذي أعاد الروح إلى جثتي المتحركة. عانقتُها عناقًا لم يكن كسابقه، عناقًا تعاهدتُ فيه ألّا أفارقها بعده.

أجهشتُ بالبكاء غير مصدقة أنها بين أحضاني.

لطالما كانت أختي عالمي الخاص، وها أنا بعد عمرٍ من الغربة أعود إلى عالمي.

بعد عناقٍ طال، رفعتُ ناظريّ لأرى الخالة أسماء، وكانت مطأطئة الرأس، خافضة نظراتها كالمذنب الخجِل. علمتُ أنها قد علمت بفعلة ابنيها. ألقيتُ نظرة عليهما، فإذا بملامح الندم قد ارتسمت على محيّاهما.

اتجهتُ نحو الخالة أسماء حتى صرتُ مقابلةً لها. رفعتْ رأسها، فقلتُ وعيناي ثابتتان في عينيها:

"لم يكن لي من بينهم سندٌ غيركِ. عليكِ أن ترفعي رأسك فخرًا بنفسك، لا بهما. لا تكون أخطاء الأبناء على عاتق الأهل على الدوام."

أجابت بتأثرٍ حدّ البكاء: "أيؤذي بعض الناس طيّبي القلب أمثالك؟ وإن كنتُ لستُ المذنبة، فأعتذر عمّا ضاع من عمرك بين تلك الجدران."

رأيتُ صدق مشاعرها المعتاد في عينيها، فعانقتها وأنا أُربّت على كتفها. شعرتُ في تلك اللحظة أنني لم أعد طفلة البتة. تذكرتُ أمي حين كانت تتحدث عن اليوم الذي سأكبر فيه... حين أكون أنا من يربّت على كتف أحدهم لا العكس، حين أدرك معنى أن تسامح،

ومعنى أن تلتمس الصدق في عيون أحدهم.
أخذ كلٌّ من عليا وعلاء يعتذر بإلحاح، راجيين السماح. فأجبتهما بنبرة جادة: "لن أنسى طيلة حياتي كيف توفيت صديقتي... ولن أسامحكما."
ظنّ كلٌّ منهما أنني لن أسامحه، فأكملت بعفوية: "لن أسامح لأجلكما... بل سأسامح لأجلي! لن أسمح لنفسي أن أعيش حاملةً الحقد والكراهية بين ضلوعي."
بدت أمارات عدم الفهم على ملامحهما، فقلت مداعبةً، وأنا أفتح ذراعيّ داعيةً عليا إلى العناق: "ثم إن قلبي الصغير لا يحتمل مشاعر الكره... لذا سأسامحكما."
عانقتُ عليا معلنةً بداية علاقة جديدة بيننا، وأومأتُ لعلاء بما يفيد أنني قد

سامحته.

أخبراني بكل ما حدث لإياد، وطلبا مني مسامحته، فلم يكن مني إلا أن قلت:
"حتى وإن لم تخبراني، ما كنتُ لأسامحكما ثم أرفض مسامحته."
حين وصلتُ إلى المنزل، كانت رنا وابنها حامد، اللذان كانا يعتنيان بإياد، قد غادراه. كنتُ أول من دخل غرفته. لم يكن كالرجل الذي عرفته؛ كان ذا وجه شاحب وجسد هزيل، طريح الفراش كأنه نصف ميت.
وحين أخبرته أنني قد سامحته، بكى بكاءً شديدًا لم أره منه يومًا. شفقتُ على حاله، وآلمني ندمه كما لم يؤلمني كلامه القاسي سابقًا. لم يكن الوهن لائقًا بذلك

الرجل الذي كان كالجبال.
رغم غيابي عن المدرسة لأشهر، كان إطلاق سراحي قبل انتهاء الفصل الدراسي فرصة لي، فانغمستُ في المذاكرة خلال الأيام القليلة التي فصلتني عن الامتحان النهائي. وبكثير من الاجتهاد، وبمساعدة أسماء في أوقات فراغها القليلة، استطعتُ تجاوز ذلك الفصل بعد عناء.
ومع انتهاء العام الدراسي، أكملتُ عامي الثاني عشر، وحانت اللحظة التي تمنيتُ لو أن أمي تشاركني إياها... اللحظة التي لطالما تمنتها لي منذ صغري، لحظة ارتدائي الجلباب والحجاب. لا أزال أذكر نظرات أمي حين رأتني أرتديه في تلك الليلة. تمنيتُ أن أرى نظرة الفخر تلك في عينيها، لكن نظرات أسماء كانت كفيلة بتعويضي عنها.

في الأيام التالية اشتد المرض بإياد أكثر فأكثر، وفي ذلك اليوم بالذات بدا وكأن صباحه يحمل رسالة بأن النهاية قد أوشكت. اشتدت برودة جسده حتى صار كالثلج، وصاحبتها رجفة شديدة اهتز لها جسده كله.

لم يستطع الغطاء، مهما كان سميكًا، ولا المدفأة، مهما ازداد لهيبها، تخفيف ذلك البرد القارس، ولا تلك الرجفة التي تشبه سكرات الموت...

كانت حالته مقلقة لأهله، فدبّ الخوف في قلوبهم. حاولت أسماء جاهدة تحسين حاله، غير أنها وقفت عاجزة عن ذلك.

وسرعان ما انقلبت برودة جسده إلى حرارة فائقة. رُبط لسانه، فلم يستطع أن يتفوه بكلمة رغم محاولاته، إلا أن

جريان دموعه كان لغةً مفهومة لدى أسماء، التي راحت تحدثه وهو مُجهِش بالبكاء صامتًا، عاجزًا عن إصدار أي صوت، كلامًا كان أو بكاءً.
اكتفى بتلك الدموع، مشيرًا بيده نحو الجانب الأيسر من سريره. كانت حرارة جسده الحارقة تزداد، لكن أسماء كانت تفهم جيدًا ما يحاول قوله. أخذت تومئ نفيًا: لا... لم يحن الوقت بعد. ظل يوجه يده إلى ذلك المكان حتى التقطت الظرف المخفي حيث أشار، والدموع تذرف بغزارة من عينيها الحزينتين، كأنها مجبرة على ما تفعل. ثم أومأت لإياد وهي تحمل الظرف، مشيرةً له بأنها ستلبي طلبه.

أخذت تحاول تخفيف حرارته بالكمادات، وبعد فترةٍ من المحاولات بشتى الطرق،

انخفضت حرارته فخلد إلى النوم من فوره. خرج الجميع من الغرفة، وقصة ذلك الظرف مبهمة لدى الجميع عدا أسماء. بدت علامات الاستفهام جلية على ملامحهم، ورغم أن أحدًا منهم لم ينبس ببنت شفة، فإن نظراتهم كانت تستنطق أسماء، التي صمتت لبرهة، ثم راحت تسرد قصة ذلك الظرف قائلة:

"إنه عماد، توأم إياد الذي لطالما أحبه. كان إياد وأخوه عماد يعيشان مع أبيهما بعد وفاة والدتهما. بذل أبوهما قصارى جهده ليوفر لهما حياة تعوضهما عن خسارة والدتهما، وبعد أعوامٍ من العمل الشاق استطاع أن يصنع اسمًا له كأغنى سكان منطقته. أخذت أعماله تزدهر، وكان همه الوحيد حينها تأمين مستقبل ابنيه.

حين وصل إياد وعماد إلى سن البلوغ،

توفي أبوهما، فكان الميراث الذي خلّفه سببًا في نشوب صراعات بينهما.
عمى الجشع قلب إياد، فأراد إرث أبيه كاملًا لنفسه دون مشاركة أخيه.
استمرت الشجارات بينهما فترةً قبل أن يفقد عماد الأمل في أن يتنازل أخوه عن حقه. فاتفقا أن يكون الميراث شراكة بينهما ليواصلا أعمال أبيهما في مسقط رأسه — مدينة عين عتيق — كما أوصاهما قبل وفاته.

اعتقد إياد أن أخاه قد عاد لرشده، وأن علاقتهما التي كانت كالروح في جسدين عادت كما كانت، بعد أن كادت صراعاتهما الأخيرة تكون سببًا في نهايتها.
مرت الأيام والشهور، واستعاد عماد ثقة أخيه، فبدأ بتنفيذ خطته.

حين تأكد أن إياد يثق به ثقة عمياء، عرض عليه تلك الصفقة المغرية ليستشيره قبل عقدها. أخبره أن أحد أكبر رجال الأعمال في مجالهم في الرباط يود عقد صفقة معهما من شأنها أن تجعل عملهما يزدهر مجددًا بعد تراجعه في فترة شجارهما.

كان قلب إياد حينها يحثه على الثقة بقرارات أخيه أيًا كانت، وكان عقله يخبره أن تلك الصفقة فرصة لا يمكن تضييعها. لم يكن لدى إياد ذرة شك وهو يوافق على عقد الصفقة التي تولى عماد كل أمورها، حتى لم يبقَ على إياد سوى التوقيع على بعض البنود.

كانت ثقة إياد بأخيه كفيلة بأن تجعله يوقع على تلك الأوراق دون أن يلقي نظرة عليها، ولو أنه قرأ ما كُتب فيها

لأيقن أن أخاه ليس أهلًا لتلك الثقة...
بعد توقيع إياد، كشف له أخوه عن وجهه الحقيقي وأعلن خداعه له، فسلبه كل أملاكه حتى صفّرَه على الحديدة، لا بيت يأويه. لم يجد إياد نفسه إلا محطمًا بالكامل؛ لم يخسر أملاكه فحسب، بل خسر أخاه أيضًا، وكانت تلك خسارته الكبرى. كانت بمثابة وخزة خذلان تلقاها من أقرب الناس إلى قلبه.
قرر ترك مدينة عين عتيق إلى الأبد، وقطع علاقته بأخيه نهائيًا. ثم أسس حياة جديدة في قرية تمارة. ظن أنه تمكن من فتح صفحة جديدة، غير أن حزنه على أخيه بقي يلاحقه، وبقيت الذكريات التي جمعتهما منذ الصغر ملازمة له.
لم يرد أن تكون نهاية علاقته بأخيه بذلك الشكل، فقرر أن يكتب له رسالة تكون آخر ما يجمعه به، غير أنه في الوقت

ذاته لم يرد تسليمها إلا حين تقترب نهايته ويُوشك على الرحيل..."
قالت أسماء الجملة الأخيرة وقد تمركزت غصة في منتصف حنجرتها، ثم أكملت وهي تنفجر بالبكاء:
"ويبدو أن ذلك الوقت قد حان..."
كان الجميع يستمع إليها بإنصات يختلط فيه الحزن على نهاية علاقة إياد بأخيه، والخوف من رحيله. قرر علاء أن يحقق آخر أمنية لأبيه لعلها تكون سببًا في عفوه عنه، فطلب من أمه أن تسمح له بإيصال تلك الرسالة.
احتارت أسماء فيما عليها القيام به في ذلك الموقف، غير أن شيئًا واحدًا كان الجميع على يقينٍ منه:
"لا بد من تحقيق آخر أمنية لإياد."
لم يكن بإمكان أسماء ترك إياد وهو في تلك الحالة، كما امتنعت عليا هى

الأخرى عن ترك ابويها بمفردهما.
كانت تود قضاء ما تبقى من الوقت مع والدها، وإن كان لفترة وجيزة.
استمرت النقاشات فترة حول من سيوصل الرسالة إلى عماد في عين عتيق، ثم انتهى النقاش بقرار دنيا الذهاب مع علاء، وبقاء أسماء وعليا للاعتناء بإياد وأختها نور.

مرت عدة ساعات في التجهيزات، ثم انطلق كلٌّ من دنيا وعلاء متجهين نحو مدينة عين عتيق التي لم يرها أيٌّ منهما قط.
فهل سيتمكنان من إكمال تلك المهمة يا ترى؟
بعد سفرٍ لم يستمر أكثر من نصف ساعة، وصل دنيا وعلاء إلى عين عتيق ليبدآ رحلة بحثهما متجهين نحو المجهول.

فور وصولهما اصطدما بمشهدٍ مروّع كان تجاهل الناس له أكثر غرابة منه:
أمٌّ تسكب البنزين على جسدها استعدادًا لإحراقه تحت نظرات ابنيها الصغيرين، بينما كانت امرأة تقف بجانبهما تحاول جاهدة حجب المشهد عنهما.
اشتد بكاء الطفلين، لكن أحدًا من ذلك الحشد لم يأبه بهما. كان الجمع المحتشد يتعامل مع المشهد وكأنه اعتيادي. لم يحاول أيٌّ منهم إيقاف تلك الأم.
وقف علاء ودنيا في مكانهما مصدومين، غير قادرين على استيعاب ما يرونه.
مرت لحظات لم يتغير فيها شيء، قبل أن تقرر دنيا إنقاذ تلك الأم. حاول علاء جاهدًا منعها قائلًا:
"لو كان إنقاذها سهلًا إلى هذا الحد، لما تجاهلها الجميع بهذا الشكل."

أفرغت السائل على سائر جسدها،
وأمسكت بالولاعة، ولم يبقَ بينها وبين
الموت سوى حركة واحدة. وما إن همّت
بفعلها حتى عصفت تلك الطفلة كالبرق،
وفي لحظة خاطفة كانت قد رمت
الولاعة بعيدًا تحت نظرات الحشد —
نظراتٍ كان مفادها أن ما قامت به دنيا
سيكلفها ثمنًا أغلى مما تتخيل.
ركض الطفلان نحو أمهما التي عانقتهما
مجهشة ببكاء يستحيل وصف مشاعره
آنذاك.
استمر احتضان الأم لطفليها فترة، قبل
أن تنظر إلى دنيا نظرة غامضة لم تكن
أقل غرابة من نظرات الناس حين
أنقذتها. نظرة لم تستطع دنيا فهمها، ولا
علاء الذي ركض مسرعًا باتجاههما.
قالت المرأة بغموض بعد صمتٍ مريب:
"ليت باستطاعتي شكركما على ما قمتما

به..."
لم يفهما من عبارتها سوى أن خطرًا سيطرق بابهما عما قريب. حاولا الاستفهام منها، لكنها لم تقل غير ذلك.
متجاهلة أسئلتهما، سألت:
"ما الذي تفعلانه في هذا المكان؟"
دارت بنظرها حولها، ثم أردفت:
"أنا على يقين أنكما لا تنتميان إليه."

زاد ذلك من استغرابهما، لكن شيئًا ما أوهمهما أن تجاهل خوفهما قد يخففه قليلًا.
أجابها علاء بعد أن ابتلع ريقه:
"وصلنا لتوّنا من قرية تمارة. نبحث عن رجل يُدعى عماد. كان يعيش هنا في عين عتيق منذ زمن طويل و..."
وما إن نطق باسم عماد حتى استوقفته المرأة بلهفة مستغربة:

"عماد؟ أيّ عماد؟"
أجابها، واستغرابه يزداد:
"عماد عبد الرؤوف غالي."
صُعقت المرأة لسماع الاسم كاملًا حتى سقطت أرضًا من هول الصدمة. عندها تأكد علاء أن علاقةً ما تجمع هذه المرأة بعمه.
ألحّ عليها قائلًا:
"هل تعرفينه؟ أين هو؟ هل أصابه مكروه؟"
أجابته بسؤال، وكأنها لا تزال تريد التأكد من أمرٍ ما قبل أن تتفوه بشيء:
"ما علاقتك بعماد؟"
قال:
"أنا ابن أخيه."
تدحرجت الدموع على وجنتيها بعد سماعها ذلك، ثم قالت بصوتٍ مرتجف:
"الحقني..."

اتجهت المرأة مع طفليها إلى منزلها، بينما لحق بها كلٌّ من علاء ودنيا.
فتحت الغرفة، فإذا برجلٍ جعل منه المرض طفلًا حديث الولادة؛ بدا وكأنه على حافة قبره. لم يعد سوى عظام لا يكسوها لحم، جوارح بالكاد تتخللها ذرة روح، مستويًا على سريره كأنه غدا نسيجًا منه، ينتظر موته كما لو أنه خلاصه.
قبل أن تأخذ الشفقة من قلب علاء ما أخذت، كلمته المرأة قائلة بحسرة ودموعٍ غزيرة:
"هذا هو عماد عبد الرؤوف غالي."
كان علاء قد حقد عليه لما فعله بأبيه، لكن ها هي دموعه تنهمر مستشعرًا رؤية عمه لأول مرة. كانت حالة عماد كفيلة بأن تُبكي الجبال، فما بالك بمن يجري دمه في عروقه.

اتجه نحوه بخطوات متثاقلة حتى وقف
إلى يسار السرير متأملًا حاله. أشار
للمرأة سائلًا إن كان يستطيع سماعه،
فأومأت بالإيجاب:
"لم يعد يملك سوى سمعه."
أخرج علاء من جيبه رسالة أبيه، وبدأ
قراءتها مستشعرًا حاله وحال عمه،
مهمومًا بما حلّ بهما:
إلى نصفي الآخر
يا من كان لي في يومٍ من الأيام سندًا...

إن كانت هذه الرسالة بين يديك الآن، فلا
بد أني بين الحياة والموت — إن لم يكن
الموت أولى بي — وإيصالها آخر
أمنياتي.
أخي... انتبه ممن حولك.
لو كنتُ بجانبك لفديتك بقلبي، ولما
سمحت لأي آدمي أن يؤذيك.

سندي... لم ولن أنسى ما حييت ذكرياتنا معًا، وستكون شفيعةً لك.
أكتب هذه الرسالة لأحمل لك بشارة...
لقد سامحتك.
سامحتك من أعماق قلبي، مهما كان ما فعلته.
سامحتك كي لا أكون سببًا في أذاك، ولو بتأنيب ضميرك.
وبغلاوتي عندك، لديّ طلب:
لقد اشتقت لابتسامتك، فهلّا ابتسمت؟
أعتذر إن كنتُ قد جرحتك دون قصد.
ابتسم لتثبت لي أنك قد سامحتني.
اعلم أن لك أخًا يحبك أينما كنت،
يحبك ويشاركك مشاعرك رغم بعده.
أتذكر حين كنت تستيقظ مرتعبًا من صوت الذئاب، وكان وجودي وحده ما يطمئنك؟

الحياة ستكون أكثر قسوة... لن أكون قادرًا على طمأنتك، لكني أود تحذيرك. خذها آخر نصيحة من توأمك.

إياد

حين انتهى علاء من القراءة، كان عماد قد غرق في دموعه.

لم يكن يملك سواها ليعبّر عما يشعر به. كان عجزه كفيلًا بإبكاء كل من حوله.

قال علاء خاتمًا كلامه:

"أبي يوصل سلامه لك... ويتمنى أن يقابلك لآخر مرة."

لم يجبه عماد سوى دموعه التي لم تجف.

التفت علاء إلى زوجة عماد، زهرة، قائلًا:

"ما الذي أوصله إلى هذا الحال؟"

فبدأت زهرة تسرد:

"بعد خيانة عماد لأخيه إياد، كان من المفترض أن ينتهي دور الثعبان إلياس الذي استعان به للتخلص من أخيه، لكنه تفاجأ بانقلابه ضده وتجريده من كل ما يملك. نصب له الفخ على مهل دون أن يلحظ.

وفي لحظة، استولى على ثروته. وجد عماد نفسه وحيدًا مفلسًا، بعد أن خسر أباه وأخاه، ثم أمواله.

فكر في البحث عن أخيه لعلّه يستعيده. طال بحثه، وكان اليأس يزداد يومًا بعد يوم، حتى لم يعد له خيار سوى الاستسلام. رغم قرب إياد منه، لم يعثر عليه.

بدأ الندم ينهشه، حتى تولد الغضب — غضب من نفسه — دفعه لمحاولة استرجاع أمواله من إلياس. لكنه لم يكن يعلم بعلاقاته الوثيقة مع شخصيات

سياسية كانت قوتها كفيلة بإسكات كل مظلوم.

لم يكلف إلياس التخلص من عماد سوى... إبرة."
سكتت لحظة، ثم أكملت:
"إبرة جعلت من عماد ما ترونه الآن. دفع ثمن غدره بأخيه غاليًا... إلى حد جعل حياته بؤسًا، موتًا بطيئًا أقسى من الموت نفسه.
أراد أن يقابل أخاه لمرة أخيرة، أن يراه قبل أن يأتيه موته الذي غدا مرآةً له."
بكت زهرة قبل أن تستأنف:
"ازدهرت أعمال إلياس بشكل مرعب. ازداد نفوذه، حتى هيمن على عين عتيق بأسرها. كان هو الحاكم، لا أحد سواه. يعبث كما يشاء، والجميع عاجز عن

التصدي له.
ما حدث اليوم كان بأمرٍ منه.
يختار بين فترة وأخرى إحدى بنات عين عتيق...
وعلى الفتاة التي يختارها أن تحرق نفسها أمام الملأ، ولا يحق لأحد التدخل.
لا أحد يجرؤ أصلًا.
الجميع يرتعد خوفًا منه.
كان موت الفتيات حرقًا أرحم من حياتهن.
الشعور بالعجز متربع على عرش مشاعر كل من تسقفه سماء عين عتيق.
تقديم الشكاوى للشرطة يعني جحيمًا أبشع.
حتى أنا..."

تدحرجت دمعة على وجنتها.
"حالة عماد جعلته عاجزًا عن الاعتناء

بابنيه أو بي... هو حتى لا يستطيع الاعتناء بنفسه."
أطلقت ضحكة مريرة، ثم تابعت:
"اضطررت للعمل لدى الشيطان إلياس لأوفر احتياجاتي واحتياجات عماد وابنينا التوأم، ماجد ونجد. لم يكملا ربيعهما الخامس بعد.
لكن الأمور لم تكن كما أردت.
كان إلياس حاقدًا عليّ كما هو حاقد على عماد. أراد أن يذيقني المأساة ذاتها.
وفي لحظة يأس قررت تنفيذ أمره... لم أكن أعلم ما مصير عماد أو طفليّ بعد أن أحرق نفسي."
نشجت، ثم نظرت إلى دنيا بامتنان لم تعرفه عيناها منذ زمن:
"لا أعرف ما الذي كان سيحدث لو لم تنقذني صديقتك هذه اليوم..."
سرعان ما عادت دموعها وهي تقول:

"وفي الوقت ذاته... لا أعرف ما الذي سيحدث الآن بعد إنقاذها لي..."
علاء، ودهشته مما سمع لا تزال مسيطرة عليه:

تقصدين أن عين عتيق بكل ما فيها تحت سيطرة إلياس؟ ماذا لو عدنا كلنا إلى تمارة؟ لا أحد يمكنه أن يؤذينا هناك...
زهرة: هذا العالم أقسى مما تتخيل، سادَه الجشع فصار المال هو المسيطر: "من ملكه، ملكه"، وأمثالنا ليسوا سوى فرائس له. لو كان في السفر خلاصُنا لسافرت منذ ذاك الحين، إلى حيث أكون على يقين أن مصير ابنتي نجدي لن يكون كمصير فتيات عين عتيق، إلى حيث يمكنني تعليم ابني أن المبادئ ليست كما يراها هنا البتة، إلى مكان يكفيني أن تكون الحياة فيه أفضل من

الموت ولو بقليل، فوالله إن الموت أرحم مما نعيشه هنا ألف مرة... لكن لا حول لنا ولا قوة.

(شردت للحظات قبل أن تقول):

من كان ليخطر على باله أن إلياس، الذي لم يكن سوى خدعة، سيتحول إلى حقيقة تحكم مدينة بأسرها وتحدد مصير سكانها؟!

بدت شاردة هذه المرة وهي تقول بشرود مشوب بحسرة:

ربما ليس صعبًا أن تُخلِّص مظلومًا من ظالم بالاتحاد معه، إنما الصعب، أو شبه المستحيل، أن تُنقذ مظلومًا من ظالمٍ اتحد هو معه على ظلمه!

لن يُحرِّر عين عتيق من لا غرض له في الحرية، مع الأسف...

دنيا: هذا يعني أنه ليس علينا سوى أن نشعل الشرارة بداخلهم، ربما نوقظه من

تلك الغفوة و...
(قاطعها علاء):
وما الشرارة التي قد تُشعل في أناسٍ عانوا الظلم كل هذه السنين؟ لِمَ اختار إلياس، برأيك، استهداف الفتيات؟

هنا تدخلت زهرة:
وما الأبشع من أن يرى أحدهم أخته أو أمه أو زوجته تحترق أمام عينيه دون أن يُحرِّك ساكنًا؟
دنيا: إذًا ليس هناك سبيل للنجاة من قبضة المسمى إلياس سوى أن نجعل فتيات المدينة يُدركن مدى قوتهن...
علاء، بضجر: لا أصدق أن رسالة وداع من أبي ستثير كل هذه الفوضى في حياتنا!
دنيا: الحياة مليئة بالمفاجآت، علينا أن نكون على أتم الاستعداد في أي محنة

زهرة: أتمنى لو بإمكاني تهنئتك على شجاعتك، لكن الحياة ليست وردية كما تعتقدين.
دنيا: لستُ أنا من يحتاج أن يُشرح له أن الحياة ليست وردية، لكن من أقنع نفسه أن سبيل تحرره طاعةُ ظالمه فهو واهم، الحرية لن تطرق بابه دون سعيٍ منه.
علاء: وأنا كل ما يشغل بالي الآن ما سيفعله إلياس هذا بنا بعد أن عارضناه فور وصولنا، يبدو أننا سعينا نحو أجلنا دون أن نعلم.
زهرة: أعتقد أن الله بعثكم لنا كي توقظونا من غفوتنا، ما فعلته صديقتك اليوم علّمنا أن القوة تكمن داخلنا لا فيما هو ظاهر.
علاء: إذًا، إذا أردنا العودة إلى حياتنا ثانيةً، علينا أن نحارب معكم لأجل تحرركم؟!

دنيا، وهي تخاطب زهرة: ولن يحصل ذلك إلا بمساعدتك، كل ما عليك فعله إقناع البقية بما اقتنعتِ به.
زهرة: كيف؟
قبل أن تجيبها، إذا بالباب يُطرق بعنف...
فزعت زهرة وأخذت تقول برعب متلعثم، تحذر دنيا:
سيأخذونك، سيحل بك ما حل بمن قبلك، سيحرقونك وأنتِ على قيد الحياة، حدث كل هذا بسببي...
علاء: علينا أن نهرب فورًا، سنعود من حيث أتينا، إن علم أبي بسبب عودتنا فلن يلومني على ذلك، وحتى أمي...
خطت دنيا نحو زهرة بثقة غريبة، ثم نطقت بمواساة تحمل الثقة ذاتها، وهي تضع يدها على قلب زهرة:

أنتِ قلتِها، تكمن القوة "هنا". ربما لم أكن أعرفك من قبل، لكني أثق بك، فلا تخذليني كما خذلتِ نفسكِ مرة. آن الأوان لأن تقولي للظلم: "توقف".
ثم سارت بخطوات واثقة نحو الباب لتفتحه، فإذا بمجموعة من الرجال يداهمون المكان بعنف، وأخذوا يتوعدونها بأن الويل سيحل بها لمخالفتها أوامر الزعيم، وأنها ستدفع الثمن غاليًا...
وما لبثوا أن أمسكوا بها، حتى إذا بفتاة تسقط من الطابق الثالث والنيران تلتهمها، احترقت حتى لم يتبقَّ منها سوى الرماد...
صرخة مدوية ملأت المكان أطلقتها أمها حين رأت المشهد، صُعقت مما حل بابنتها في غيابها

أخذت تنوح وتندب وتلعن اللحظة التي تسببت في كونهم في ذلك المكان. أخذت تصرخ بهستيرية، ولم يعرها أيٌّ من ذلك الجمع المحتشد حولها اهتمامًا، عدا زهرة وعلاء اللذين هرولا نحوها، ثم أخذ كلٌّ منهما يحاول تهدئتها.

لم يكن احتشاد الناس سوى لحظات فضول سرعان ما انقضت حين اتضحت لهم المسألة، فعاد كلٌّ منهم إلى حيث كان، كأن شيئًا لم يكن. تمامًا كما عاد أولئك الرجال لإكمال عملهم وإلقاء القبض على دنيا.

نظرة أخيرة، مؤكِّدة أكثر منها مستنجدة، ألقتها دنيا على زهرة، فكانت كفيلة بأن تجعلها توقن أن شيئًا لن يتغير ما لم يغيّروه هم؛ فلا سبيل للنجاة ما لم يمهِّد كلٌّ منهم لها.

أمسكت بيد دنيا معترضة طريق

الرجال، وهي تقول:
"ليس بعد الآن. لن نسمح بأن تكون أي فتاة ضحية لطغيانكم بعد الآن."
همّت بإيقافهم، لولا أن قوتهم كانت أكبر وعدتهم أكثر. وحتى بعد أن انضم علاء لمساعدتها، إضافةً إلى مقاومة دنيا ومشاركة تلك الأم التي بلغ منها الغضب ذروته، لم يستطيعوا إيقاف أولئك الرجال. غير أن تصديهم لهم أحدث جلبةً كبيرة نجم عنها شجار محتدم.

دام ذلك الشجار فترةً، سرعان ما احتشد الناس مجددًا خلالها. وبعد أن تأكدوا أن الغلبة لن تكون لهم على ذلك النحو، قرروا الاستنجاد بمن حولهم.
إلى متى؟
إلى متى ستبقون صامتين، يتوطأ على

أفواهكم كل من هبّ ودبّ؟
إلى متى ستبقون صامتين، وبناتكم
وأخواتكم وأمهاتكم تتالى منهن الضحايا
واحدة تلو الأخرى؟
إلى متى ستظللون تشاهدون أحبّتكم
يحترقون أمام أعينكم دون أن تحركوا
ساكنًا؟
أما آن الأوان لانتهاء صمتكم؟
أما آن الأوان ليروا غضبكم؟
أما آن الأوان لتظهروا لهم قوتكم
وتصديكم وعواقب ظلمكم؟
أما آن الأوان؟
تذكروا فقط: إن لم توقفوهم اليوم فلن
تُتاح لكم فرصة ثانية، إن لم تتصدوا
لظلمهم اليوم فلن تتذوقوا طعم الأمان
والطمأنينة يومًا، إن لم تحاربوا لأجل
حريتكم اليوم فلن تنالوها مدى الحياة. لن
تشرق شمسها، وستبقون في تلك العتمة،

تحت غيوم الظلم والتسلط، ما دامت قلوبكم تخفق... إن كان في صدوركم قلوب تخفق بالفعل!

صمت الجميع ليروا وقع كلماتهم على الحشد. مرت لحظات

صمت لم يحدث فيها شيء، فظنّوا أن كلامهم لم يجدِ نفعًا، غير أن ما حدث بعدها بدد تلك الظنون: عاد الجميع، وكل منهم يحمل أداة قتل أو دفاع. كانت شرارة الغضب تتطاير من عيونهم كالحمم، ثم سرعان ما شرعوا في ضرب أولئك الرجال حتى أبرحوهم ضربًا، كادوا يتسببون في قتلهم، غير أن إبقائهم على قيد الحياة ليصل الخبر لقائدهم دفعهم لعدم قتله.

لحظات ضربهم أحدثت فوضى عارمة، لم يكن أي من الحشد يتوقف عن

الضرب ولو ليلتقط أنفاسه. كان الجميع كما لو أن وحشًا كاسرًا استيقظ بداخله.
حين وقع رجال إلياس أرضًا يتأوّهون من الألم، لم يستوعب أي منهم فكرة أنه بهذا يمتلك القوة، فكرة أن غضبه قد يقلب الأمور. سرت الدهشة، ممتزجة بشعور الانتشاء والفخر، في عروق كل منهم. مرت لحظات، كل على وضعه، غير مدركين أن الأمر انتهى...
نظرة شكر ممتزجة بالاستغراب ألقاها الجميع على دنيا وزهرة، كما لو أنهم لا يصدقون أنهم تمكنوا من إنقاذ إحدى الفتيات التي كانت تتالى منهم الضحايا على مر السنين دون أن يحرك أحد شعرة لأجلهن. نظروا إليهن وكأن بهن شحنة قوة وشجاعة تثير دهشتهم.
رفع كل منهم أداة الحرب التي كانت بيده، ثم تهافتوا بصوت واحد:

"لن يكون أي منا ضحية لأمثالهم من الظلام بعد اليوم، سنتخلص من الشيطان إلياس مهما كلفنا الأمر!"

استبشر الجميع، وكأن أملًا جديدًا أُشعل بداخله، بينما اشتعلت نار الغضب في الوقت ذاته.
بدأوا تخطيطهم لبناء خطة محكمة للقضاء على إلياس، وهم وسط حيرة: كيف سيتخلصون من شخص له صديق في القانون ولا يخطو خطوة إلا وكان محاطًا بألف رفيق؟ أي طريق سيسلكه من أراد القضاء عليه؟
في البداية شعروا أن ما يصبون إليه قد يطاول المستحيل، وبعد نقاش طويل توصلوا إلى القرار: "ربما هو الإنصاف في حالهم." قرروا التعامل معه بذات

طريقته، بذات الطريقة التي لطالما استخدمها ضدهم فيما مرّ من دهر الأذى، قرروا حرقه كما حرق منهم المئات. لكن يبقى السؤال: كيف سيتمكنون من تنفيذ ذلك القرار؟

بدأت الآراء تتباين حول كيفية حرق إلياس رغم الحراسة المشددة؛ فلا تكاد تخلو زاوية من منزله ـ الذي كاد أن يكون قصرًا في تلك المدينة الصغيرة ـ من أحد حرسه. استمر نقاشهم طويلًا قبل أن يقوموا برسم تلك الخطة:
"سيحاول بعضهم إلهاء الحرس، بينما يقوم الآخر بالولوج إلى داخل بيت إلياس حاملًا الـ(gaziline)، ويُنثره في شتى

انحائه دون أن يلحظ صاحبه ذلك، ثم يقومون برسم طريق يمتد من داخل المنزل إلى خارجه بواسطة الـ(gaziline)، وعندها لا يبقى سوى حركة واحدة لتنتشر النيران ملتهمةً إلياس وكل ما يتعلق به، محولةً منزله إلى رماد."

في اليوم التالي بدأ تنفيذ الخطة. قاموا بتسليم دنيا متصنعين الاستسلام في البداية، قبل أن يقوموا بثورة عند بوابة المنزل لتشغل الحرس أثناء انتشار الـ(gaziline) في المنزل. كان إلياس قد وضع دنيا داخل منزله دون إعلان منه عن نواياه، غير أن من دخلوا المنزل قاموا بإنقاذها وإخراجها منه.

سارت الأمور كما خططوا تمامًا، وبعد انتهاء المهمة داخل المنزل لم يعد هناك داع لمواصلة الثورة المختلقة، فأُنهيت

فجأة دون سبب رادع واضح للحرس، مما بعث الشك في قلوبهم، وربما كان فهمهم للمسألة في تلك اللحظة كفيلًا بإنقاذ إلياس، إلا أن ذلك لم يحدث.

كانت حركة واحدة على رأس الولاعة كفيلة بإنهاء قصة اضطهاد إلياس إلى الأبد، ومن الطبيعي أن تهيج الرغبة في قلوب الجميع ليكون صاحب تلك الحركة، غير أنه فضل أن تكون على يد زهرة.

واقفةً على بعد أمتار من المنزل، مستعيدةً كل ما عاشته من ذل على يد الشيطان المسمى إلياس، ومستجمعةً من الشجاعة ما لم يخطر ببالها يومًا أنها تمتلكه، أشعلت الولاعة، قبل أن تتحرر من يدها تاركةً لها إكمال طريقها نحو رأس الطريق الذي رسموه، بدأت النيران سيرها الذي لم يتوقف إلا حين

تحول ذلك المنزل الشبيه بالقصر إلى رماد.
أراد الجميع أداء رقصة فرح وابتهاج فوقه؛ نقطة انتهاء وضعتها زهرة لتضع نهاية لقصة إلياس إلى الأبد.
وها هي تلك الطفلة التي لم تكد تبلغ ربيعها الثاني عشر تتعلم درسًا عن النضال من تلك القصة لتعلمه لغيرها.

اتجهت نظرات الامتنان نحو كل من زهرة ودنيا، وكان الجميع على استعداد للقيام بأي شيء لرد الجميل، غير أن تحقيق أمنية إياد الأخيرة هو كل ما رغبتا فيه، فحُققت لهما على يسر، ليتكفل بسفرهما مع الطفلين وأبيهما إلى علاء.
عاد علاء محملًا بمشاعر مختلطة ما

بين فخر بتحقيقه لأمنية أبيه، وحزن
على حاله، واشتياق لأخته التي عرف
جيدًا معنى علاقته بها بعدما رأى ما بين
عمه وأبيه من أخوة. تمامًا كما حدث مع
دنيا، التي اشتعلت بداخلها نيران الشوق
لأختها نور.
لم تطل فترة سفرهما، إلا أن شوقهما
جعل كل لحظة تمر كما لو أنها عام.
فور وصولهما هرولت دنيا نحو أختها
لتحتويها بين أحضانها في عناق يضارع
عناق الأم لوليدها بعد خشيتها فقده

اتجه علاء نحو أبيه الذي لا تكاد تفصله
عن المنية إلا رفة جفن، مبشرًا إياه
بتحقيق أمنيته الأخيرة ووفائه له بوعده،
بينما كانت أسماء، الغارقة في دموعها،
الباهتة الذابلة إثر حسرتها على حال
زوجها، تحاول التحامل على نفسها كي

ترحب بزهرة وابنيها، قبل أن تطمئن على حال دنيا وعلاء، اللذين سألاها عن علياء، فأجابتهما بأنها أرسلتها لابتياع بعض الأغراض من البقالة.
وُضع كل من عماد وإياد على سريرين متقابلين، ووضع علاء يد كل منهما في يد الآخر قائلًا:
أبي، هذا أخوك الذي لطالما تمنيت لقاءه.

عمي، هذا أخوك الذي أردت رؤيته.
هذه هي اللحظة التي لطالما خفتما ألا تعيشاها قبل وفاتكما.
تدحرجت على وجنتيهما دمعة شوق امتزجت بعجز قاتل، ردة فعل لم يملكا سواها للتعبير عما يشعران به.
اجتاح الضيق علاء، كما ملأ صدور الحاضرين.
ذرف كل من إياد وعماد دموعهما

بعجز، بخيبة، بحزن سحيق، وبـ"وداع".
وفي تلك اللحظة بالذات، وقبل أن يتفوه
أي من الحاضرين بكلمة واحدة،
انقطعت روحا الأخوين في الوقت ذاته.
عم الهدوء للحظات، وهيمن صمت
خانق على المكان، وبينما لا يزال
الجميع تحت وطأة الصدمة، دوى ذلك
الصوت المزلزل، صوت سرعان ما
تلته همهمات مرتعبة وصيحات مفزعة.
ورغم الضجيج المروع الذي ملأ المكان
في الخارج، فإن الحزن هيمن على
الجميع، فبقوا على حالهم غير قادرين
على الحركة أو التفاعل مع أي أمر
خارجي. ألم استحال احتماله ووصفه
فرض سطوته عليهم، مقيدًا إياهم.
مرت لحظات قبل أن تقرر دنيا معرفة
ما يحدث في الخارج وما يسبب كل ذلك
الضجيج.

فور خروجها من المنزل، التهمتها الحشود في زحامها فلم تدرك سر ما يحدث. وبعد محاولات عدة للتوغل وسط ذلك الحشد، وبعد أن سألت مرارًا دون أن تجد مجيبًا، أجابها ذلك الرجل بما تمنت لو أنها لم تعرفه:

انفجار غازي حول البقالة بما فيها إلى رماد.
مرت لحظات قبل أن تعيد إليها ذاكرتها جملة سمعتها من أسماء قبل قليل:
"أرسلت علياء لجلب بعض الأغراض من البقالة."
لا يمكن...
هكذا أجابت نفسها حين خالجها ذلك الهاجس غير القابل للتصور. مجرد التفكير في الأمر جعل بدنها يقشعر

ويرتعش.
ظلت فترة طويلة لا تدرك مرور الوقت خلالها، سارحة مطرقة تفكر، قبل أن تسأل بإلحاح:
هل توفي أحد في الحريق؟
فأجابها:
سمعت أن صاحب البقالة كانت معه فتاة، وقد توفي الاثنان. أحرقتهما النار بالكامل.
هنا تحول هاجس دنيا إلى شيء عجزت عن وصفه أو تفسيره، مشاعر مضطربة من نوع آخر تتضارب بداخلها.
بكت... أبكتها الحيرة. أتعود إلى أم لتحزنها أم تعود إلى الزوجة المتماسكة فتهدئها؟
اختارت التأكد أولًا؛ لعل الرجل أخطأ فيما قاله، ولعلها لم تفهم الأمر كما هو، بل فهمته كما تخشاه.

بدأت تسأل الجيران واحدًا تلو الآخر، وبعد إجابة كل منهم كانت توهم نفسها بأنها سمعت العكس. لم تصدق من قال إن علياء هي المتوفاة فعلًا.

وبعد تكرار الإجابة نفسها على مسامعها أكثر من مرة، لم تجد بدًا من التصديق، من الاستسلام للحقيقة.

وسط الحشود وقفت محتارة، لا يخفف مرور الوقت من حيرتها، ولا بقاؤها في مكانها. ظلت هناك على حالها، والكون بأكمله في حراك دائم إلا هي.

وبعد فترة عادت إلى المنزل حاملة ذلك الخبر بكل ما فيه من ثقل.

«والذئب أطول منها وقفة»

لم تكد تبدأ في إخبار أسماء بما حدث حتى صاحت:
يا ويلتاه!
ثم وقعت صريعة بين أيديهم فاقدة للوعي، الذي كان فقدانه أهون الفقد عليها.
سادت المكان حيرة وحزن؛ أيكون الحزن على وفاة إياد أم على ابنته علياء؟
كان مجرد تحطم أسماء والحالة المزرية التي وصلت إليها كفيلين بأن يخيما بالحزن على الجميع.
كانت تلك من أصعب فترات حياتهم.
أكثرَها حزنًا وثقلًا على قلوبهم. فإثر وفاة إياد وعماد، تحتم على زهرة وأسماء البقاء في المنزل حتى انقضاء عدتهما، مما جعل الأمور تتعسر إلى حدٍّ

كبير. كانت تلك الأشهر الأربعة والعشرة الأيام من أسوأ ما عاشوه طيلة حياتهم وأشدِّها سوادًا.
كل هذا جعل أسماء، التي ثكلت ابنتها ورُمِّلت بوفاة زوجها في آنٍ واحد، تخور قواها وتتهشَّش نفسيتها، مما أدى إلى تدهور صحتها إلى حدٍّ كبير. وظلت زهرة تعتني بها طيلة تلك الفترة، محاولةً التماسك والتحامل على ألمها لتكون سندًا لها.
واضطر علاء ودنيا إلى العمل لكسب ما يساعد العائلة على البقاء. ولم يكن عملهما يلبي الكثير من الاحتياجات بطبيعة الحال، لكنه على الأقل مكَّنهما من البقاء على قيد الحياة حتى انقضاء تلك الأشهر، على أمل أن يعقبها فرج.
ولحسن حظهما، كانت المدرسة في عطلتها الصيفية آنذاك.

تحملا المسؤولية رغمًا عنهما، إذ لم يكن أمامهما خيار سوى التأقلم القسري مع الوضع. وكان عليهما إدارة أعمال أسماء وإياد في ذلك العمر الصغير.

وبعد مرور عدة أشهر ثقُلت على قلوب الجميع ثقلًا لا يُتصور، فُتحت المدارس. وكان كلٌّ من علاء ودنيا يفكر في ترك دراسته، إذ إنهما وجدا كل تلك المشقة في العمل قبل افتتاح المدارس، فكيف سيكون الحال بعد عودتها؟ كان من المستحيل أن يديرا العمل ويواصلا الدراسة في الوقت نفسه.

تملكتهما الحيرة والقلق، وكانت ملامحهما قد اكتست بآثار التعب والمعاناة، ممتزجةً ببراءتهما التي لم تعد قادرة على إخفائها. وبعد حيرة لم تدم طويلًا، قرر علاء ترك دراسته، مانعًا دنيا من الإقدام على الأمر نفسه رغم

إصرارها.
حاولت ثنيه عن قراره، غير أن ظروفه كانت تقف بينهما، قائلةً إن عليه، حتى بعد انقضاء العدة، أن يعتني بأسماء، وفي الوقت ذاته لا يمكنه أن يترك عبء العمل كله على كاهل زهرة. ولم يكن من الممكن، ولو بنسبة ضئيلة، أن يواصل دراسته وسط تلك الظروف، فاستسلمت دنيا لقراره. ولم يكن ما جعلها تستسلم هو اقتناعها به، بقدر ما كانت قسوة الواقع هي التي فرضت عليها ذلك
مرت فترة قصيرة كانت خلالها إدارة الأعمال على عاتق علاء، وكانت دنيا تساعده من وقت لآخر، وإن كان العمل قد أنهكه أكثر منذ عودتها إلى دراستها قبل انتهاء تلك الأشهر الأربعة وعشرة

أيامها. حاولت زهرة أن تعود أقوى بكثير مما كانت عليه، فتسلمت معظم ما يتعلق بالعمل من أعباء، وأعادت تسييره بنضج أكبر مما كان عليه خلال الأشهر السابقة.

أما أسماء فقد فتك بها المرض فتكًا شديدًا، وكلما ألقى أحدهم نظرة على حالها تبادر إلى ذهنه حال إياد وأخيه قبل وفاتهما، فيسارع إلى طرد تلك الفكرة هربًا منها ومن جرح قد يعيدهم إلى نقطة الصفر بعد ذلك الشفاء الوهمي الذي بنته الأشهر الماضية.

حاولت دنيا جاهدة مواصلة دراستها باجتهادها المعتاد رغم كل ما يحدث، بل اجتهدت أكثر لتحصل على منحة تمكنها من إكمال تعليمها، إذ كان ذلك مستحيلًا لو اعتمدت على مالها وحده. وكانت تلك الفترة أكثر الفترات التي فكرت فيها

بالتراجع، وكان قرار المواصلة شاقًا عليها. لم يكن الخيار الأسهل بكل تأكيد، لكن ما دفعها إلى اتخاذه هو اقتناعها بأنه الخيار الأفضل.

وقد أوصتها أسماء وعلاء أكثر من مرة بالحرص على إكمال دراستها، وبعد تراجع علاء عن مواصلة تعليمه، أصبحت كل الآمال معقودة على دنيا. وخلال الأشهر الماضية، كانت زهرة تعتني بنور مع ابنيها، إضافة إلى رعايتها لأسماء. وبسبب انشغال دنيا الشديد، لم تعد تلتقي بأختها إلا قليلًا، مما زاد الأمر صعوبة عليها. غير أن مجرد التفكير في أختها كان كافيًا لانتشالها من كل ما هي فيه، مهما بلغ سوءه.

وكانت أسماء، قبل أن تسوء حالتها،

تردد عليها دائمًا: «لا تسمحي لأي أمر دنيوي أن يوقف مسيرتك الدراسية».
كانت تستعيد هذه الجملة في كل وقت، حاضرة في ذهنها على الدوام، وتسترجعها كلما شعرت أنها بدأت تتلاشى. هكذا كانت تقنع نفسها بالمضي قدمًا.
وحين بدأ الموت يقترب من أسماء، وأدركت أنه سيبلغها عاجلًا أم آجلًا، قررت أن تخبر دنيا عن آسية، مرفقة ذلك بكثير من التحذيرات والكلام عن طبعها السيئ. ورغم سوء آسية، شعرت أن لدنيا كامل الحق في معرفة خالتها.

وبعد سنوات، حصلت دنيا على المنحة الكاملة التي عملت لأجلها طويلًا، ونالت الشهادة التي ستمكنها من الالتحاق بأرقى

الجامعات، ومنها جامعة محمد الخامس بالرباط. كان نجاحها بتفوق وحصولها على فرصة ثمينة كهذه سببًا في عودة فرحة ظنت أنها غادرت قلبها منذ أعوام طويلة، حتى إنها لم تتخيل يومًا أنها ستعود.

وبدأت الاستعدادات لسفرها مع أختها، تاركة ذلك المكان الذي تلقت فيه كثيرًا من الجراح، وعانت فيه من الآلام ما فاق ما منحها إياه من أفراح حين كان والداها على قيد الحياة.

خالجتها مشاعر كثيرة تجاه كل من أحبته هناك، لكن هدفها كان يتصدر المشهد في كل مرة يحاول فيها قلبها أن يطغى على عقلها.

وقبل سفرها بيوم واحد، تلقت خبر وفاة أسماء.

كانت صفعة قوية ومؤلمة ومفاجئة، رغم أنها كانت تتوقعها.

«مهما توقعت موت أحدهم، فلن يكون خبر رحيله هيّنًا عليك أبدًا»
تحدٍّ آخر تواجهه دنيا بعد كل ما تخطته.
كاد خبر وفاة أسماء يفسد فرحتها بالمنحة، لولا تذكرها أن أسماء كانت أغلى ما تملكه بتمارة، وأن وفاتها الآن بمثابة تحرير لها من قيد لا تعلم إن كانت ستتعايش معه لو لم يحدث ما حدث، وكأن وفاة أسماء تخبرها ألا داعي لأن تنظر إلى الخلف ثانية.

غير أن مشاعر جديدة كانت قد ربطتها بعلاء؛ مشاعر لا تجعلها تتراجع عن قرار سفرها، لكنها تربطها بتلك البلدة، وتجعلها تحن إليها وتشتاقها مهما ابتعدت عنها.

وكانت المشاعر نفسها قد نمت في قلب علاء، بل بلغت ذروتها. فربما لم تحب دنيا علاء كما أحبها هو، ورغم قوة ذلك الحب ظل دفينًا في قلبيهما، يلتمسانه في نظرة، ويستشعرانه في صمت، ويعيشان أثره في نبضة هائجة هادئة داخل صدريهما.

كانت وفاة أسماء تعني لعلاء فقدان آخر قطرة من دمه، فلم يبق له أحد من عائلته. ومع ذلك لم يستطع ترك زوجة عمه، فقد أراد أن يمنحها سندًا، كما أراد منها أن تمنحه شيئًا من الحنان والدفء العائلي اللذين فقدهما.

وفوق كل ما شعر به لموت أمه، ها هو ألم فراق دنيا يزيد الثقل على قلبه، يدميه كلما حاول التماسك، ويكسره كلما حاول ترميمه. أحبها منذ وفاة أبيه، وجمعهما من الآلام المشتركة والتصدي لها معًا ما غرس تلك المشاعر في قلبه.

وكان الألم ذاته يصاحب دنيا. فأسماء كانت أمانها منذ وفاة والديها. ها هي تتذكر تلك المرأة الواقفة عند باب المنزل تنتظرها بقلق، وتتذكر أخرى تقبل رأسها بحنو، وتحتضنها في أوقات كانت فيها بأمس الحاجة إلى حضن، وتمسك بيدها لتصطحبها إلى منزل في وقت لم تجد فيه يدًا تمسكها ولا منزلًا يأويها.

صدقتها حين عدّها الجميع قاتلة، لا لوجود دليل، بل لشدة ثقتها بها. صدقتها حين لم تكن هي نفسها قادرة على تصديق نفسها، وآمنت ببراءتها كما لم تفعل دنيا ذاتها. أشياء لا تُحصى قدمتها أسماء لها، فكيف لها ألا تحزن لموتها؟

إضافة إلى مشاعرها تجاه علاء، جعلها ذلك كله تتوقف. أجل، تتراجع بعد كل ما شجعت به نفسها، مما لم تعد تراه الآن سوى ترهات أمام ما تشعر به.

ألغت سفرها، وقضت فترة غارقة في حزنها، تتساءل: ما الذي فعلته كي تعاقبها الحياة بهذا الشكل؟ أي ذنب اقترفته جعلها تعيش كل هذا الألم دفعة واحدة؟

تساؤلات كانت تمزقها كنصل حاد، وتحفر في أعماقها لتكشف جروحًا لم تندمل يومًا، وتعيدها إلى نقطة ظنت أنها تجاوزتها، وتسحبها إلى القاع، مانعةً إياها من الصعود والازدهار، لتجعلها تذبل بدلًا من ذلك كله.

ومع ذلك، كان ثمة شيء صغير لا يزال ينبض بداخلها؛ نور خافت يحاول السطوع، وصوت هامس يحاول أن يُسمعها كلماته، وأمل يحاول انتشالها مما هي فيه.

من أين أتى؟ لم تكن تدري.

هكذا وجدت نفسها فجأة تقول:

«الحياة لن تتوقف على أحد. الأحلام لا تُقدَّم على طبق من ذهب. ودروب الحياة ليست مفروشة بالورود، بل بالأشواك والعقبات، وبكل ما قد يجبرك على التوقف. تذوق حلاوتها يتطلب تذوق المرارة قبلها، وفرحك بتحقيق ما تطمح إليه مرهون بحزنك على أشياء أخرى ربما أحببتها أكثر، وبذرفك دموعًا لم تكن مستعدًا لدفعها ثمنًا، وبجروح لم تتوقعها. لكن ذلك لا يغير شيئًا، فلا يزال عليك أن تواصل، وأن تحارب، وأن تدافع، أو ربما فقط أن تصمد.»

يُقال إن من تتالى عليه البلاء إما أن ينهيه، وإما أن يجعله أقوى مما كان عليه، وهكذا كانت دنيا، وهكذا اختارت

أن تكون.

لن يعود أحد ممن فقدتهم، لذا ليس عليها سوى التمسك بمن بقي. ستستأنف أمر سفرها، وستسافر مع أختها الحبيبة، سندها الوحيد، وأنيس وحدتها، وعائلتها التي عوضتها الحياة بها.

لم يبق لها سواها.

ستترك ماضيها في ذلك المكان، وستعيش بعيدًا عنه مع أختها وحلمها فقط. هكذا أوصتها أمها، وهذا ما ستفعله.

ستمضي إلى الأمام دون توقف، ولن

تنظر إلى الخلف بعد الآن، بل سيكون نظرها متجهًا إلى الأمام حيث هدفها.

أما علاء، فقد كتم حزنه واحتفظ بألمه وحبه لنفسه، ودفنهما في أعماقه.
فالإفصاح عنهما لن يغير شيئًا، لذا فضل الصمت، إذ لا فرق بين صمته ونطقه على أي حال.

سافرت دنيا إلى جامعتها بمنحتها الكاملة، لا تحتاج إلى دفع أي رسوم، فاعتقدت أنها لن تواجه أي مشاكل.

لكن هل الأمر حقًا كذلك؟

لا أعتقد ...
ظنت دنيا أن باستطاعتها اصطحاب

أختها إلى السكن الجامعي، لكن بعد وصولها إلى الرباط وبدء تجهيزات إقامتها، علمت أن الطلاب لا يُسمح لهم باصطحاب أحد أفراد عائلاتهم أو غيرهم إلى السكن الجامعي.

لم تعرف ما الذي عليها فعله. كانت تقلق حين تفكر في الساعات التي ستغيب فيها عن أختها أثناء الدوام، فكيف لها ألا تقيم معها في المكان نفسه؟ كان مجرد التفكير في إقامتها بذلك السكن دون نور مستحيلاً. استمرت حيرتها طويلًا، مطرقةً تفكر في طريقة تأمن بها على أختها، فبعمرها الصغير ذاك لا بد لها من رعاية. وبعد تفكير طويل، تذكرت شيئًا قد يكون السبيل الوحيد لحل مشكلتها.

فكرت في خالتها التي أخبرتها أسماء عنها، ورغم ما سمعته عن خصالها

السيئة، فإن أملها في أن تكون قد تغيرت، وحاجتها إلى مأوى تقيم فيه مع أختها، جعلاها تُقبل على ما جال في خاطرها.

ستقيم هي ونور عند خالتهما. ستذهب إلى دوامها الجامعي بعد أن توصل نورًا إلى مدرستها في طريقها، وحين تعود ستصطحبها من المدرسة إلى المنزل. هكذا فكرت، معتقدة أن الأمور ستُحل فور التقائهما بآسية.

كانت تملك العنوان، لذا لم تواجه صعوبة كبيرة في العثور على منزل آسية. ها هي واقفة أمام بابه، مترددة في طرقه، تعيد يدها في كل مرة ترفعها للطرق. ألقت نظرة على أختها وهي تفكر: «ماذا لو لم تتغير خالتي؟».

لم تكن تود أن يلحق الأذى بنور، وإقبالها على هذا الأمر قد يشعرها بالذنب فيما بعد، لذا فكرت في التراجع. لكنها سرعان ما أخذت شهيقًا عميقًا، وزفرت بعده كل الصور السوداء التي تخيلتها، واستبدلتها بأخرى أكثر تفاؤلًا.

«ربما تغيرت آسية.»

كان ذلك وجهًا آخر للأمور، تحاول أن تنظر إليه من زاوية مختلفة.

بعد الكثير من التفكير، طرقت الباب أخيرًا. مرت لحظات دون أن يُفتح، فطرقت ثانية وثالثة دون جدوى. التفتت ناوية المغادرة، لكن قبل أن تخطو خطوة سمعت الباب يُفتح.

التفتت، فإذا بها هي.

امرأة أخذت الكثير من ملامح يقين، مما جعل المشاعر تجتاح قلب دنيا فور

رؤيتها. مرت لحظات وهي سارحة تدقق النظر في تقاسيم وجهها، شاردة تستعيد ملامح أمها وذكرياتها معها.
غاصت في تلك الذكريات بعمق قبل أن ينتشلها ذلك الصوت الحاد الذي لم يكن يشبه صوت أمها البتة:
ـ من أنتِ؟
أجابت بتأتأة:
ـ أنا... أنا دنيا إسلام عبد القادر... عفوًا، أقصد... أنا... أمي... أمي يقين...
سألتها آسية، وقد انعقد حاجباها استفسارًا:
ـ يقين ماذا؟
أجابت دنيا بعد أن استعادت شيئًا من تركيزها:
ـ يقين صفوان... صفوان سيف الدين راجح.
عندها عرفتها آسية. علمت أنها ابنة

أختها، لكن لا شيء تغير فيها، لا تزال كما هي. دققت النظر فيها من ذؤابة رأسها إلى أخمص قدميها، ثم قالت بازدراء:

ـ وماذا بعد؟

استغربت دنيا من ردة فعلها الجامدة، لكن قبل أن تنطق بكلمة أكملت آسية، وقد تراجعت وكأن فكرة جديدة خطرت ببالها:

ـ آه يا ابنة أختي الحبيبة! كم أردت رؤيتك والتعرف عليك، لكن...

ثم عانقتها بعطف لم يكن من الصعب كشف تصنعه، إلا أن دنيا لم تنتبه لذلك. فكت العناق بعد لحظة، ثم ألقت نظرة إلى الأسفل وسألت:

ـ من هذه؟

أجابت دنيا:

ـ أختي.
احتضنتها هي الأخرى، لكن الطفلة لم تكن مطمئنة لها؛ فمنذ أن رأتها لم تستسغها.
ـ تفضلا بالدخول.
قالتها آسية قبل أن تحمل حقائبهما إلى الداخل.
في الداخل، رحب بهما كل من قمر، ابنة آسية، وزوجها حلمي. أظهر الجميع سرورهم بقدومهما. بدأت دنيا تسرد ما أوصلها إلى ذلك المكان، مرفقة حديثها بالكثير من التفاصيل عن نفسها؛ كوفاة أبويها وما حدث بعد ذلك.

أظهرت قمر وحلمي تعاطفًا مع دنيا، على عكس آسية التي لم تكن ردة فعلها منسجمة مع ما كانت تتظاهر به قبل قليل.

مر وقت طويل أمضوه في الحديث حتى لم يشعروا به إلا وقد حان موعد النوم.
وبعد أن بقيت نور مع أختها بمفردهما، حاولت تحذيرها من آسية، وأفصحت عن عدم اطمئنانها لها، لكن دنيا لم تأخذ حديثها بعين الاعتبار، بل لامت أختها على ما قالته.
مرت الأيام الأولى بشكل جيد، وظلت آسية محافظة على ذلك الوجه الطيب الذي رسمته لنفسها، لكن بعد أيام بدأت الأمور تأخذ مجرىً آخر. بدأت تُظهر وجهها الحقيقي؛ فقد أرادت إكمال ما لم تستطع إكماله مع يقين، واستغلال طيبة دنيا لتدفع هي وأختها ثمن مغادرة أمهما منذ أكثر من تسعة عشر عامًا.

كان أول ما فعلته هو طرد جميع خدمها لتحل دنيا ونور مكانهم. وافقت دنيا على

القيام بكل ما يتعلق بالمنزل من غسل وكنس وغيرهما في أوقات فراغها، شرط ألا تتعرض أختها لأي أذى، وألا تُقحم في تلك الأمور؛ فما تزال صغيرة ولن تتحمل ذلك. تظاهرت آسية بالموافقة، لكنها كانت تستغل غياب دنيا لتعذب نور، مع الحرص على ألا تفصح الطفلة عن ذلك.

لم يكن أي من قمر وحلمي راضيًا عما فعلته آسية بالفتاتين، لكنهما لم يتجرآ على معارضتها. مرت فترة والحال على ما هو عليه. كان الأمر صعبًا على دنيا، لكنه كان أشد قسوة على أختها التي أرهقها العمل وأنهكها تعذيب خالتها لها. كانت أصغر من أن تتحمل، وبنيتها أضعف من أن تصمد أمام كل تلك المشقة

بدأت تظهر عليها بعض الأعراض المريبة؛ كالتعرق الدائم، والسعال المتكرر، وضيق التنفس الذي أخذت نوباته تتقارب مع مرور الوقت، إلى جانب حالات إغماء كان أغلبها في المدرسة، مما جعل الخبر يصل إلى دنيا، إذ لم تكن تقابل أختها في المنزل إلا قليلًا لكثرة انشغالها.

أُخبرت دنيا بحال أختها من قبل المدرسة نظرًا لكونها الوصي الوحيد عليها، فقررت اصطحابها إلى المستشفى للاطمئنان على صحتها.

وبعد الاطلاع على نتائج الفحوصات كافة، قال الطبيب مخاطبًا دنيا التي كانت تجلس على الكرسي المقابل له:

ـ أختك تعاني من مرض يُسمى "التليف الكيسي". هذا ما دلت عليه الأعراض والفحوصات التي أجريناها لها، بالإضافة إلى أن جسدها منهك بدرجة لا ينبغي لطفلة في التاسعة من عمرها أن تبلغها. عليك الاعتناء بها أكثر، والحرص على عدم تعرضها لأي مشقة. قد تعاني من ضيق في التنفس من وقت لآخر، لذا يُستحسن مراقبة حالتها باستمرار

أجابت بلهفة وقد انعقد قلبها خوفًا:

ـ بالطبع سأفعل، إنها كل ما أملك في هذه الدنيا... لكن أخبرني يا دكتور، هل يمكن أن تُشفى؟ هل ستصبح بخير؟ أخبرني هل من سبيل لشفائها من هذا المرض؟

لطبيب: في الحقيقة، لا نلجأ عادةً إلى الجراحة لعلاج هذا المرض إلا نادرًا وفي الحالات المستعصية، لكن نظرًا لضعف جسد أختك وتقدم المرض لديها، فإن تحمله لن يكون سهلًا عليها. لذلك من الضروري أن تُجرى لها عملية جراحية في أسرع وقت ممكن.
سألت دنيا باستفسار:

ـ وما سبب إصابتها بهذا المرض؟
أجاب الطبيب بعد تفكير وجيز:
ـ أعتقد أنه قد يكون وراثيًا.
أطرقت دنيا لحظة، تفكر إن كان لذلك علاقة بما حل بأبيها إسلام من قبل، ثم سألت:

ـ وماذا عن التكاليف؟ أيمكن دفعها بالتقسيط؟
أجاب الطبيب بأسف:
ـ للأسف، لا يمكن دفع تكاليف العملية إلا دفعةً واحدة.
أنهت حديثها مع الطبيب في ذلك اليوم، وعادت محملةً بهمٍّ جديد. ها هو الشعور بالحيرة يتملكها مجددًا، فما الذي يمكنها فعله في هذا الحال؟
كيف لها أن تعالج أختها وهي بالكاد تستطيع تحمل نفقات طعامهما وكسوتهما؟ تتمنى الآن لو أنها كانت طبيبة، لو كان باستطاعتها إجراء العملية بنفسها، لو أنها تملك القدرة على حماية نور من كل أذى قد يصيبها.
ماذا عساها أن تفعل؟

أقل ما يمكنها قوله عن أختها نور أنها النور الذي ترى به مهما ساد الظلام، والهواء الذي تتنفسه مهما ضاق المكان، والنبض الذي يبقيها على قيد الحياة.

ربما لو علم الناس مقدار ما تعنيه لها لاجتمع الطاقم الطبي بأسره لمعالجتها، معتزًا بما يفعله، لكنهم لا يعلمون.

وحدها تشعر بذلك، ووحدها ستتأثر إن أصاب أختها أي مكروه.

أيقنت أن الحصول على تكاليف علاج نور هو السبيل الوحيد لإنقاذها، وفي الوقت ذاته كانت متأكدة أن جمع المال لن يكون ممكنًا ما دامت خالتها تُثقل كاهلها بذلك الكم من الأعمال.

عادت إلى المنزل ذليلةً أرهقتها الحاجة إلى من يحمل في صدره قلبًا كالحجر.
ترجت خالتها أن تساعدها في توفير تكاليف علاج أختها، أو على الأقل أن تسمح لها بالعيش معها دون إشغالها بتلك الأعمال، لعلها تجد عملًا تستعين به.
لكن قلب آسية كان كالصخر الأصم، لا يتأثر بكلمات دنيا ولا بمحاولات زوجها إقناعها:
ـ توقفي عما تفعلينه. كيف لك أن تكوني بكل هذه القسوة؟ ألم يسترعِ حالها انتباهك؟ ألا يعني كلامنا شيئًا بالنسبة لك؟
وبعد الكثير من الرجاء، وافقت آسية على إعطائها أجرًا زهيدًا مقابل عملها، أجرًا لا يكاد يكفي لسد جوع طفلة، فكيف له أن يغطي تكاليف العلاج؟

كان على دنيا البحث عن عمل إضافي بدوام جزئي، وإن لم يكن وضعها يسمح بذلك. كان وقتها موزعًا بين الجامعة وأعمال المنزل، مما جعل العثور على فرصة أخرى أمرًا بالغ الصعوبة.

بدأت البحث في جامعتها، محاولةً المشاركة في بعض البحوث والفعاليات، كما بحثت في المطاعم والمقاهي ومحال بيع الملابس. وبعد عناء طويل، استطاعت العثور على عمل في محل للمجوهرات، يبدأ ليلًا، وهو ما جعله مناسبًا لظروفها.

أعادت تنظيم وقتها؛ تقضي أول يومها في الجامعة، ثم تتفرغ لأعمال المنزل، قبل أن تتوجه إلى عملها ليلًا.

كان ذلك مرهقًا إلى حد بعيد، لكن فكرة فقدان أختها كانت أشد إرهاقًا.
كان عليها أن تعالج نور مهما كلفها الأمر، ومهما كان الثمن الذي ستدفعه لتحقيق ذلك باهظًا.
لكن ذلك الثمن كان الابتعاد عنها.
باتت بالكاد تملك من الوقت ما يكفي لاحتضانها قبيل الفجر بقليل.
استمرت على هذا الحال طويلًا. ولم تكن نور راضية عما تفعله أختها. كانت تفضل الموت بعد أسبوع واحد تقضيه كاملًا في حضن دنيا على أن تعيش سنوات بعيدة عنها على هذا النحو.
كانت تتوسل إليها أن تمضي معها بعض الوقت، بينما كانت كل واحدة منهما تشتاق إلى الأخرى رغم أنهما تعيشان تحت سقف واحد.

وكانت النتيجة أن شعرتا كلتاهما بالوحدة وسط تلك المحنة.
دام الأمر ثلاثة أعوام كاملة قبل أن تتمكن دنيا من جمع تكاليف العلاج. كان راتبها قليلًا مقارنة بالمبلغ المطلوب، مما أخر اكتمال المال اللازم للعملية.
وخلال تلك السنوات، كانت نور تتلقى العلاج الدوائي لتصمد حتى موعد الجراحة الذي اضطروا إلى تأجيله مرارًا لأسباب مادية.
وبعد ثلاثة أعوام، بدأت التجهيزات اللازمة للعملية، وحدد موعدها بعد أسبوع.

في تلك الفترة، لم تتوقف آسية عن استغلال أي فرصة لإيذاء نور.
كانت دنيا قد بدأت تلاحظ ذلك، لكنها لم تتأكد منه يقينًا إلا في ذلك اليوم.
فقد أرسلت آسية نورًا لإحضار بعض الأغراض، رغم تحذيرات دنيا المتكررة لها، ورغم معرفتها أن أختها لم تعد قادرة على القيام بمهمة كهذه، فضلًا عن أنها غير معتادة على الخروج وحدها.
عادت دنيا يومها متأخرة من جامعتها.
وحين وصلت إلى مدرسة نور لم تجدها هناك.

أسرعت إلى المنزل، لتخبرها آسية ببرود:
ـ أنا من أحضرها من المدرسة، ثم أرسلتها لجلب بعض الأغراض من الخارج.

ثم أضافت بلا مبالاة:
ـ أرسلتها منذ فترة طويلة، وحتى الآن لم تعد. لقد تأخرت على نحو مقلق.
سيطر الغضب على دنيا، غضب لم تعهده خالتها منها قط. حاولت جهدها أن تتمالك نفسها، ثم قالت بصوت مرتجف من شدة الانفعال:
ـ إن أصاب أختي أي مكروه بسبب ما فعلتِ فلن أسامحك أبدًا. سيقتص الله لي منكِ. احذري، وادعي أن تعود بخير، وإلا فالله وحده يعلم ما الذي سيحل بكِ.
ألقت كلماتها ثم انطلقت تبحث عن أختها.
لطالما عاتبت خالتها وحذرتها من قبل، لكنها لم تكن يومًا بهذا القدر من الغضب.

وقد جعلت كلماتها شيئًا من القلق يتسلل إلى قلب آسية للحظة، لكنها سرعان ما استعادت جمودها المعتاد... وتلك النظرة المفعمة بالازدراء.

خرجت من المنزل مسرعةً باحثةً عن أختها. بحثت في كل مكان خطر على بالها، لكنها لم تجدها، ولم تعثر عليها في أي مكان. لم يعد يخطر لها موضعٌ لم تبحث فيه بعد، ولم تعد تعرف أين عليها أن تبحث. ها هي تسير دون وجهة، وفي كل مرة تفكر أين يمكن أن تجد نورًا لا تجد جوابًا إلا وقد بحثت في مكانه.

بيأسٍ حدَّثت نفسها، قاصدةً من تتمنى لو كان بإمكانه سماعها:

ـــ أين أنتِ يا تُرى؟ أرجوكِ عودي إليَّ، لا يمكنكِ تركي بمفردي هكذا. لا يمكنني تحمُّل مجرد التفكير في غيابك، في عيشي بدونك، وفي ابتعادك عني. عودي إليَّ، أتوسل إليكِ. لقد اشتقتُ لكِ كثيرًا. لم نلعب سويًّا منذ أعوام، ومنذ أعوام لم أرسم لكِ الحناء على وحمة يدكِ الصغيرة تلك، كما كنا نفعل منذ صغركِ. عودي، فقد أظلم دربي ويحتاج إلى نوركِ. سأعوضكِ عن كل تلك الأعوام، سأعوضكِ عن كل لحظة سرقتها منكِ، أعدكِ بذلك. أعدكِ أن أعوضكِ عن كل ليلة كان يجب أن أجلس معكِ فيها، أن أحتضنكِ، أن أحدثكِ عن أهلنا... و...

غصَّةٌ ثقيلة استقرت في حنجرتها فلم تستطع إكمال كلامها. امتلأت عيناها بالدموع، تلألأت تحرق مقلتيها، وانسابت دمعاتٌ حارة على وجنتيها.
فكرةٌ مروعة اخترقت عقلها، ثم ولجت إلى قلبها لتشعل خوفًا هائجًا مدمرًا كبَّله العجز وقيده، فصارت الدموع صرخاته المكتومة.

قضت فترةً طويلة دون أن تنطق بكلمة، بينما كان الضجيج يملأ عقلها، وبعد برهة وجدت نفسها تكمل حديثها:
ـــ آسفة على كل القبلات والأحضان التي سرقتها منكِ، وعلى الأعوام التي أخذتها دون إذن منكِ. لدينا الكثير لنفعله سويًّا. إن لم تعودي فلن أسامح نفسي، ولن يهدأ قلبي يومًا، وسيلازمني الشعور بالذنب إلى الأبد.
محطمة القلب، حانية الرأس، محطمة الآمال، يتآكلها الندم، بقيت تسير في الطرقات فترةً طويلة دون أن تجف دموعها. أدركت أن بحثها لم يعد يجدي نفعًا، فقررت إبلاغ الشرطة بالأمر، لعلَّ بحثهم يكون أكثر جدوى. لكن أحدًا منهم لم يعثر على نور.

كان على دنيا الانتظار حتى يصلها خبرٌ من الشرطة، لكنها لم تكن تملك مكانًا تجلس فيه. لم ترد العودة إلى بيت خالتها، ولم تكن تعرف أين عليها أن تبحث. بقيت تسير في الشوارع، تتفقدها واحدًا تلو الآخر، تبحث عن أي تفصيل صغير يمكنه إيصالها إلى أختها، وعن أي بصيص أمل، وعن ذرة نور تضيء لها العتمة التي استوطنتها.

وبينما كانت تسير شاردة الذهن في أحد الشوارع، اصطدمت بحقيبة فأوقعتها دون قصد. وقعت هي والحقيبة معًا، وما إن همَّت بالوقوف من موضع سقوطها حتى صُفعت بتلك الصدمة المروعة. فقد انسكب بعض ما في الحقيبة خطأً، ولم تستطع تصديق عينيها حين رأت ما بداخلها.

لقد كانت أشلاء!
أشلاء إنسان. أجل، لقد قطع أحدهم آدميًّا ووضع أشلاءه في الحقيبة!
لكن ليس هذا ما صعق دنيا، بل...
بل تلك القطعة، تلك اليد، تلك الـ...
وحمة!!
إنها الوحمة نفسها، نفسها التي كانت على يد أختها، هل يعني ذلك أن...
لا يمكن... لا يمكن. هكذا حاولت إقناع نفسها، فمن المستحيل أن تجرؤ على التفكير في شيء كهذا.
تسارعت ضربات قلبها، وأصابتها أكبر حيرة قد تواجهها في حياتها كلها.
هل تكتفي بما رأته؟
أم تسكب ما تبقى في الحقيبة من أشلاء كي تتأكد؟

هما أمران أحلاهما مر؛ إن اختارت الاكتفاء بما رأته، فذلك يعني اقتناعها بتلك الفكرة الحالكة السواد، البشعة القاسية. لكنها لا تصدق، لا يمكنها الاقتناع بأمر كهذا، لا يمكنها استيعابه.
لعل ما رأته مجرد صدفة، مجرد وهم بناه خوفها، لعل كل ما فكرت فيه لم يكن إلا من نسج ذلك الخوف.
مستجمعةً كل قوتها وشجاعتها، محاولةً إثبات عكس ما يقوله عقلها، أمسكت تلك الحقيبة وسكبت ما فيها حتى آخر قطعة.
متجلدةً بالقوة، محاولةً استعادة تركيزها، ألقت نظرة على الأشلاء الملقاة أمامها.
إنها...
إنها هي.
إنها نور، مقطعة إلى أشلاء.
كيف؟

لكن هذا لم يكن ما فكرت به دنيا، بل بقيت مصرةً على عدم التصديق، تكذب عينيها، وتفتش القطع بيديها دون وعي.
أعادتها يداها المخضبتان بالدماء إلى مشهد وأدته، وأعادها لون الدماء القاتم إلى تلك الليلة. شيء بداخلها كان يقول:
"لقد قتلتِ نور كما قتلتِ زمرد."

تجمدت الدموع في عينيها، وقلبها ينخلع من مكانه ببطء، ينكسر ويتحطم محدثًا فوضى عارمة بين أضلعها.
بدأت تحاول جمع القطع، كما لو أنها تلملم أشلاء قلبها المحطم.
تجمدت حركة يديها، وراحت تهز رأسها بنفي مضطرب. وعلى لسانها جملة واحدة تكررها دون وعي:
"لن أعيش بعد هذا."

تمتمت بتلك الجملة، ثم انكمشت على نفسها متكورةً أمام أشلاء أختها.
ظلت طوال الليل على حالها تلك. كانت قد قضت أكثر من نصف الليل في السير بين الشوارع، قبل أن تقضي بقية الليل متكورةً في ذلك المكان.
وفي الصباح دبت الحياة في الشوارع مجددًا، وازدحمت بالمارة الذين استغربوا حال دنيا. اقتربوا منها مكوّنين حلقةً حولها؛ كلٌّ يسأل الآخر هامسًا، وكلٌّ يدقق النظر في المشهد ويحاول الاستفسار عن تفاصيله.
لم يفكر أحد في التعاطف مع الفتاة أو مواساتها، أو حتى في معرفة ما إذا كانت على ما يرام أم لا.

بدأ بعضهم يلتقط صورًا لمكان الحادثة، بينما فضّل آخرون الابتعاد عن أي أمر قد يجعلهم محل اشتباه أو يجر عليهم متاعب بسبب أي علاقة محتملة بالأمر.
اتصل أحدهم بالشرطة، فوصلت كعادتها حين لم يبقَ سوى تغطية الحدث، كما يفعل الإعلام.
ونظرًا لكون دنيا كانت في مسرح الجريمة قبل الجميع، كان عليهم أن يبدؤوا التحقيق معها، لعل إفادتها تمنحهم أي خيط قد يوصلهم إلى الفاعل.

لكن دنيا لم تزل على حالها، على هشاشتها النفسية وصمتها الذي أعقب تمتمتها بتلك الجملة.

أراد المحقق الحصول على أي معلومة منها، لذا حاول استعمال القسوة في كلماته وسيلةً لإيقاظها وإخراجها من تلك الحالة الشبيهة بالتنويم المغناطيسي.

المحقق: ـــ وصلنا خبر منذ فترة أن مجموعة من مجرمي المدينة شكلوا عصابة لبيع الأعضاء، وخاصة القلب، فهو الأغلى ثمنًا. رأينا عدة ضحايا مشابهة لهذه الضحية. إن أجبتِ عن أسئلتنا فسنتمكن من معرفة ما إذا كانت إحدى ضحاياهم أم لا.

لكن دنيا ظلت صامتة دون أي ردة فعل.

فعاد المحقق يقول:

— هل لاحظتِ ما إذا كان قلب الطفلة موجودًا بين تلك الأشلاء أم لا؟ هل تعلمين إن كانت قد قُطِّعت بمنشار أم بأداة أخرى؟ هل كان لكِ أي علاقة باختفائها؟ هل قبلتِ بيع قلبها من أجل المال؟

أسئلة غير منطقية كان المحقق يعرف أجوبتها، لكنه أراد إغضاب الفتاة، أراد أن يجعلها تتأثر بكلامه، معتقدًا أن طريقته قد تنتزع المعلومات من فمها.

لم تنجح طريقته.

لكن دنيا، ورغم أنها ظلت على حالها، كان كلامه كالطاحونة التي سحقت ما تبقى من قلبها المنكسر.

ورغم أن كل ما قاله كان غير منطقي، فإنه دمرها من الداخل، وأشعل فيها مشاعر هائجة وجنونية جعلتها تهاجم نفسها.

بدأت تفرغ تلك المشاعر بتعذيب نفسها؛
عضّت أصابعها، وخدشت جسدها
بأظافرها، ثم بدأت تضرب رأسها
بالحائط بعنف واضطراب.
«بدت خارجةً عن أحبال قرظها.»
وبدا أن أعصابها قد تلفت عن آخرها.
بدأت تعتصر عنقها محاولةً خنق نفسها.

عندها أدرك المحقق أن ما فعله قد سار
بعكس ما أراد، فبدأ العناصر بمحاولة
تهدئتها. وعرفوا أنها غير مستعدة
للاستجواب بعد.
أخذوها إلى المستشفى، وهناك حُقنت
بمهدئ أنامها بعدما كادت تفتك بنفسها.
نامت لفترة طويلة، لكن ما إن استيقظت
حتى استعادت كل ما حدث.

أخذت المشاهد تتكرر أمام عينيها.
تحسست جسدها فوجدته مليئًا بالندوب، وكان بعض جلدها لا يزال عالقًا تحت أظافرها، مما جعلها تدرك ما فعلته بنفسها.
مرت عليها لحظات وهي تتفقد حالها وتسترجع الأحداث، قبل أن تُجهش بالبكاء.

كانت دنيا بحاجة إلى جلسة نفسية، كانت بحاجة إلى من يقتلعها من عتمتها لتعي ما حولها.
بعد محادثة طويلة مع الطبيب النفسي، كان الطبيب أكثر المتحدثين فيها، أُنهِيت الجلسة.

لم يُجدِ الأمر نفعًا يُذكر سوى استجابتها للتحقيق؛ أصبح بوسعها الإدلاء بإفادتها، وكانت الشرطة معلقة آمالها عليها، آملة أن يكون لديها ما قد يغير مجرى القضية.

أدلت بإفادتها وعادت إلى جامعتها.

الجميع ظن أنها تخطت الأمر وعادت كما كانت، حتى هي اعتقدت ذلك في بداية الأمر، لكن...

كان من المستحيل أن تفكر في العودة إلى بيت آسيه، فحاولت الحصول على غرفة في السكن الجامعي مجددًا، وبعد عناء حصلت على تلك الغرفة، غرفة لم يجرؤ أحد على الإقامة فيها أو حتى دخولها، ولو لفترة قصيرة.

منذ زمن بعيد بدأت ضحايا الانتحار تتوالى في تلك الغرفة، فامتلأت جدرانها بعبارات مخيفة ورسومات غريبة. كان الجميع يخشاها، مما جعلها تبقى خالية حتى بعد تقدم السنة الدراسية.
لم تكن دنيا تهتم لكل ذلك، فلم يكن الأمر يعنيها؛ إذ لم تكن تدرك ما يحيط بها أو تعيه بشكل كامل، فشيء منها لم يعد إلى طبيعته بعد.

في ليلتها الأولى في تلك الغرفة، أخذت مطرقة وبدأت تطرق بها بعنف على يدها المسندة إلى الحائط. كانت تفعل ذلك بلا وعي؛ تستيقظ في وقت من الليل، فتُدمي يدها بتلك المطرقة، ثم تملأ جسدها بآثار أظافرها، ثم تعود إلى نومها كما لو أنها لم تفعل شيئًا.

وحين تستيقظ كانت تستغرب حال يدها الدامية، والجروح التي كست جسدها.
جهلت السبب، فحاولت تجاهل الأمر، لكنها لم تعد تستطيع الكتابة بيدها، حتى تركيزها على دراستها فقدته، مع أنه كان الشيء الوحيد الذي تشغل نفسها به حين تحزن. لكن الأمر هذه المرة لم يكن حزنًا، بل شيئًا أكبر بكثير، أكبر من أي شيء عاشته سابقًا.
أيام قضتها على حالها تلك محاولة تجاهل الأمر، لكنها أصبحت تخشى النوم لما يصاحبه من إيذاء لها. لم تعد تتذوق طعم النوم، وبعد فترة بدأ السهر يفتك بجسدها، فقررت الذهاب إلى الطبيب النفسي مجددًا، وأدركت أنها لم تُشفَ بعد.
قال الطبيب النفسي محللًا حالتها:

ـ يبدو أنك لم تتخطي الأمر بعد، ولم تتصالحي مع نفسك بعد الحادثة. لا يزال الندم على أمر ما يعيدك إلى نقطة الصفر كلما حاولت المضي قدمًا.
ـ بقاؤك بمفردك سيزيد الأمر سوءًا، وسيجعلك تختلين بنفسك وتواصلين إلقاء اللوم عليها. سيستنزفك الأمر ما لم تحدثي أحدًا عنه. عليك التحدث مع شخص تثقين به، شخص تشعرين معه بالأمان... بالأمان من نفسك.
لم تجب دنيا الطبيب وقتها، لكن كلماته بقيت عالقة في ذهنها. راجعتها أكثر من مرة، وراجعت نفسها معها، وتذكرت حديثه عن الثقة.
ضحكت.

ضحكت بمرارة، بهستيرية، بوجع.
وبكل ذلك سألت نفسها بهمس:
ـ ثقة؟... أمان؟
يبدو أنه لا يعلم أن الحياة لا تقدم لي
سوى نوعين من البشر:
ـ نوع يخذلني بعد أن منحته الثقة.

ـ ونوع يتركني بعد أن اعتبرته الأمان.
وليس معي في هذه الفترة أي من هذين
النوعين.
لا يمكن عودة من مات، ولا الرجوع
إلى من خذل.
شاردة الذهن، متأملة العالم بعمق، قالت
في نفسها:

ـ ليس لي سوى أن أنتظر... أنتظر سندًا
يرسله ربي لينتشلني مما أنا فيه.
ليالٍ أخرى مرت ولم تتذوق فيها النوم
لحظة، وبعد فترة، وفي يوم كان كغيره
قبل ذلك الحدث، طرق بابها أحدهم.
شخص لم تتوقع رؤيته.
شخص لطالما حاولت إقناع نفسها
بنسيانه.
شخص لم تستوعب عودته حتى بعد أن
رأته أمامها.
فوجئت برؤية علاء يقف على عتبة بابها
بعد كل تلك الأعوام.
تمنت الارتماء في أحضانه، والبكاء
على كتفه، وإخباره بكل ما حل بها بعده،
كطفل يشتكي لأمه، لكنها لم تستطع. كان
الدين واقفًا في المنتصف، ولم يكن
بإمكانها القيام بأي من ذلك.

لكنها استطاعت أن تبتسم في وجه من تحب، أن تقيم احتفالًا
صاخبًا في قلبها فرحًا، بعد كمد دام فترة كادت أن تنهيها. استطاعت أن تستشعر وجوده، وأن تستعيد شيئًا أضاعته ولم تتوقع استرجاعه.
لحظات مرت والصمت سائد بينهما، بينما أجهشت القلوب بالبكاء ورفرفت فرحًا في الوقت ذاته. كل منهما يسأل الآخر عن حاله، ويطمئن عليه، ويواسيه هامسًا بعودة حبيبه، بعودة من سيكون سندًا له، وطنًا سرقه القدر منه ثم أعاده إليه. يسأل أحدهما الآخر إن كان فرحًا بوجوده، فيجيبه: أجل.

بعد صمت طويل سأل كل من دنيا وعلاء الآخر عن حاله، فأجاب كل منهما الآخر، ثم عاد الصمت مجددًا.
كان كل منهما يبتسم بحياء فرحًا بسؤال الآخر، فلم يسألهما أحد عن حالهما منذ زمن بعيد.
لحظات مرت لم يجد فيها أي منهما ما يقوله، فقلوبهما كانت تشتكي لبعضها، وتحاول أن تلتئم جراحها بمشاركتها.
كان لقاء علاء في ذلك الوقت أشبه بفتح باب أمل جديد بعد أن خُيّل إليها أن جميع الأبواب قد أُغلقت.

أخبرته بكل ما حدث منذ غادرت القرية، وكان منصتًا جيدًا، مستمعًا متفهمًا. كان مجرد وجوده في ذلك المكان، في ذلك الوقت، كفيلًا بإزالة الحمل الثقيل الذي كانت تحمله على قلبها، وكفيلًا أيضًا بأن يدفعها إلى التفوه بكل ما كتمته حتى تحول إلى حمم تحيلها إلى رماد مع كل لحظة تمر.

مفارقة غريبة من ألعاب القدر.

ها هو من كان، في فترة من الفترات، أول مصادر الأذى لها في الحياة، ينتشلها من عتمتها الآن، ويرمم قلبها المنكسر.

أي مفارقة هذه؟

بعد أيام كثرت فيها لقاءاتها مع علاء، بدأت حالتها تتحسن. صارت تسترق سويعات من النوم لا تؤذي فيها نفسها، لكن أمرًا آخر كان يشغل بالها.
فمن فعل ذلك بأختها لا يزال حرًا طليقًا.
ربما لم تفكر في الأمر سابقًا لأنها لم تكن تعي ما يحدث فعلًا.
بدأت تتتبع خيوط القضية، لكن شيئًا آخر زاد الأمر سوءًا، وتم اكتشافه حين اقترب حل القضية.

كانت عصابة بيع الأعضاء هي بالفعل من تسبب بما حدث لنور، لكنها هذه المرة أضافت إلى جرائمها شيئًا آخر... شيئًا أكثر وحشية.

خرجت نور من المنزل قاصدة السوق
لابتياع الأغراض التي طلبتها آسيه.
لم تكن تعرف الطريق إلى السوق،
وأثناء بحثها عنه أضاعت طريق العودة
إلى المنزل.

في البداية كانت تبحث عن الطريق الذي يوصلها إلى السوق، لكن بعد يأسها من العثور عليه أرادت العودة إلى المنزل، فإذا بها قد تاهت مبتعدة عنه.
بدأ الخوف يدب في قلبها، وأخذت تنادي بصوتها البريء بحثًا عن أختها. بدأت بالبكاء، وواصلت البحث عن طريق العودة، لكنها لم تجده.
وأثناء سيرها تائهة بين الضياع والخوف، مرت تلك السيارة بجانبها.
سيارة سوداء معتمة، فُتح بابها بسرعة خاطفة، ثم خرج منها ذلك المقنع الذي وقف خلف الفتاة الصغيرة، فأطبق يده على فمها وحملها إلى السيارة عنوة.

كان معه ثلاثة رجال آخرون مقنعون ينتظرونه في الداخل.

ابتعدت السيارة عن ذلك المكان أميالًا ثم توقفت.
كانت طبيعة عملهم تقتضي عادة إحضار الضحية إلى الزعيم وهي على قيد الحياة، فهو من يتولى أمر الأعضاء لاحقًا، ويختار الطريقة المناسبة للاستفادة منها. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا.
سولت لهم أنفسهم ما لم يجرؤوا على الإقدام عليه من قبل.

اقترح أحدهم ألا يعلم الزعيم بأمر تلك الفتاة، وأن يستأثروا بها لأنفسهم دون علمه، لتكون جائزة يمنحونها لأنفسهم.
جعلهم خوفهم من الزعيم يعترضون على الفكرة في البداية، لكن بعد إلحاح صاحبها وتشجيعه لهم، وافقوا في النهاية.
قرروا الاعتداء على الطفلة واحدًا تلو الآخر.
لم تكن نور بصحة جيدة، فقد كانت تتناول الأدوية كي تصمد حتى موعد عمليتها. وحتى لو كانت بصحة جيدة، أو امتلكت قوة تفوق عمرها، فإن طفلة في ربيعها الثاني عشر لن تتحمل شيئًا كهذا، شيئًا قد لا يحتمله حتى من هو أكبر منها سنًا.
فوق كل منطق إنساني تواطأ الرجال الأربعة.

وماتت نور بين مخالب أولئك الذئاب.
لم يرأفوا بها.
لم توقفهم أنفاسها الأخيرة وهي تغادر الحياة.
ولم تسمع قلوبهم المتحجرة صرخاتها المستنجدة.
بعد مقتلها بدأوا يفكرون في طريقة للتخلص من جثتها.
أرادوا إخفاء الأمر حتى لا يعلم زعيمهم بما حدث.

لم يكن الزعيم يسمح لهم من قبل
بالتعامل المباشر مع الضحايا، فقد كانت
مهمتهم تقتصر على إحضارهم فقط. أما
ما يحدث بعد ذلك فكان من اختصاصه
وحده.
لكن نور، التي اعتبروها جائزة لهم،
أصبحت استثناءً.
وأرادوا أن يجربوا معها كل ما لم يُسمح
لهم بتجربته من قبل.
قطعوا الجثة إلى أجزاء صغيرة
ووضعوها داخل تلك الحقيبة.
ولم يكن باستطاعتهم بيع الأجزاء خشية
أن يكتشف الزعيم ما فعلوه.
فكروا في دفنها، لكن الفكرة تلاشت حين
أدركوا صعوبة العثور على مكان
مناسب في ذلك الوقت القصير.

فقد أصبحت تلك الضحية عديمة الفائدة بالنسبة للزعيم، وكان عليهم جلب ضحية جديدة بأسرع وقت حتى لا يثيروا شكوكه.

عادوا يفكرون فيما سيفعلونه بالحقيبة.

وفي تلك الأثناء بدأت الاتصالات تتوالى على هواتفهم.

كان عليهم العودة سريعًا مع ضحية أخرى، وإلا انكشف أمرهم.

فإن علم الزعيم بما فعلوه، فسيكون ذلك أخطر عليهم من عثور الشرطة على الحقيبة نفسها.

ولذلك، وفي قرار متسرع وأحمق وُلد من رحم الخوف، وضعوا الحقيبة في ذلك المكان دون إحكام إغلاقها، ثم استأنفوا طريقهم لإكمال مهمتهم.

تم الإمساك بالفاعلين، وأجبروا على الاعتراف بجرائمهم الشنيعة، ولم يدم الأمر طويلًا حتى اعتُقل بقية أفراد العصابة، بما فيهم الزعيم.

كان الإعدام هو الحكم الذي صدر بحق المسؤولين عما حل بنور، مما هون على دنيا بعض الشيء، وإن كانت معرفتها بتفاصيل ما حدث لأختها وبشاعة ما تعرضت له قد كادت تدفعها إلى الانتكاس مجددًا. لكن بفضل مساندة علاء لها، كان الأمر أخف مما كان سيكون عليه لو واجهته بمفردها.

لامت نفسها كثيرًا على ما حدث لأختها، وهذا ما صعّب عليها الأمر أكثر، لكنها بدأت تتصالح مع فكرة أن الأخطاء التي نرتكبها دون قصد، ثم نندم عليها بصدق، قد تكون قابلة للمغفرة إن منحنا أنفسنا فرصة لذلك.

وقد منحت دنيا نفسها تلك الفرصة.
كانت أمها قد أوصتها بحلمها وبأختها.
لم تستطع حماية أختها كما ينبغي، لكن
استياءها من ذلك لن يجعلها تضيع
الوصية الأخرى أيضًا.

كانت قد أهملت دراستها كثيرًا في الآونة الأخيرة، وكان عليها أن تعوض ذلك الإهمال.
حاولت استعادة اجتهادها المعتاد، وتركيزها على هدفها كما عهدت نفسها، وألا يشغلها عنه شيء.
أنهت دراستها الجامعية، وأصبح عليها التفكير في الكلية التي ستكمل فيها مسيرتها العلمية.
كانت تود الدراسة في كلية خارج البلاد، لذلك قررت تأجيل زواجها من علاء حتى يعرفا وجهتها القادمة، وهناك سيستقران ويكملان حياتهما معًا.
اعترف لها علاء بحبه أخيرًا، بعد أن كانت أفعاله تسبق كلماته دائمًا في التعبير عنه.

كانت ترى مشاعره جلية في كل تصرفاته، بل وحتى علاء كان يعلم بمشاعرها هي الأخرى.
وجاءت ابتسامتها الخجولة بعد اعترافه، وانحناءة رأسها حياءً، إعلانًا صامتًا عن ذلك الحب.
أخبرها أن زهرة قد تزوجت، وأن زوجها تكفل بكل ما تحتاج إليه هي وطفلاها.

وحين استقرت حياتهم، قرر هو العودة إلى حب حياته، بعدما منحته الحياة فرصة ثانية.
وقبل معرفة وجهتها الجديدة، كان في الرباط صفحة أخيرة عليها أن تطويها قبل المغادرة.
أرادت مقابلة آسيه قبل سفرها.
أرادت أن تخبرها أنها سامحتها.

فدنيا بطبعها لم تكن تحتمل البقاء حاقدة على أحد.
لم ترد لخالتها أن يؤنبها ضميرها على ما فعلته، لكن هذا لم يكن السبب الحقيقي وراء مسامحتها.
بل كان مبدأها الذي تؤمن به:
"حين تسامح أحدًا، فلتسامحه لأجل نفسك وراحة بالك، لا لأجله هو."
ذهبت إلى العنوان نفسه الذي عاشت فيه أسوأ أيامها.
المكان الذي تعرضت فيه لما احتاجت إلى معاناة طويلة كي تتجاوزه.
ها هي تعود إليه من جديد.
ولماذا؟

لتسامح من كان سببًا في كل ما لحق بها وبأختها من أذى.

لتزف إليه خبر عفوها عنه.
أي قوة تلك التي دفعتها إلى فعل ذلك؟
لكنها فوجئت بالحال التي وجدت عليها خالتها.
حال جعلها تشفق عليها كما لم تُشفق على نفسها يومًا.
وحين رأت آسيه دنيا، أحنت رأسها خجلًا.
ألقت دنيا التحية، ثم سألتها عن حالها.
كانت مبادرتها المليئة بالود كفيلة بأن تسلب آسيه قدرتها على الرد.
لم تجد ما تجيب به سوى دموع ابتلعتها بصمت.
ـ كيف وصلتِ إلى هذا الحال؟
سألتها دنيا سؤال من يهتم حقًا بمعرفة الجواب.

سؤال من لم يأت شامتًا كما توقعت آسيه، بل جاء رفيقًا بها، مشفقًا عليها.
عندها بدأت آسيه تقص عليها ما حدث معها منذ مغادرة دنيا...
بعد انتشار خبر ما حدث مع أختك، غضب زوجي مما فعلته، غضبًا كما لم يغضب من قبل. بدا أنه كرهني في ذلك الوقت، فسافر إلى أمريكا بعد أن طلقني، وبعد فترة وجيزة أرادت ابنتي اللحاق به.
كابرت على نفسي، وظننت أن الوحدة لن تضرني. عشت فترة أحاول إقناع نفسي أن ذهابهما لن يؤثر علي، لكن المنزل كان موحشًا جدًا، وكل ما هو جميل فيه فقد معناه. كانت الحياة بدونهما بلا طعم.

أدركت ذلك متأخرة ولُمت نفسي عليه، لكن شيئًا آخر ظهر متأخرًا أيضًا، شيئًا لم أحسب له حسابًا.

بدأت تظهر علي أعراض السرطان، فخفت. لم أكن أود أن تدركني المنية بمفردي. ورغم ذلك الخوف ظننت أنني أبالغ، لكن حين ذهبت إلى المستشفى تجلت الحقيقة بمرارتها كاملة، وأعطت معنى لخوفي، وأكدت لي وجود أكبر مخاوفي.

قيل إن المرض في مراحله الأخيرة ولم يعد قابلًا للعلاج. أخرجني الطبيب من غرفته قائلًا:

"أفضل قرار تتخذينه الآن هو قضاء آخر أيامك مع عائلتك."
كانت عبارته تلك أثقل من أي شيء عشته. خرجت من المستشفى وأمواج أفكاري تتلاطم، أحاول الغوص فيها باحثة عن حل فلا أجده.
وقبل أن أصل إلى منزلي في ذلك اليوم، تعرضت لحادث سير استلزم نجاتي منه بتر ساقيّ، نوع آخر من العجز، أكثر ثقلًا، تعاقبني به الحياة.
وبسبب فظاظة طبعي لم يقبل أحد الاعتناء بي، فاضطررت إلى تدبر أموري بنفسي.

ما عشته جعلني أتمنى الموت أكثر من مرة، لكن في الوقت ذاته كان هناك أمران شغلا بالي طوال الوقت؛ أولهما رغبتي في لفظ أنفاسي الأخيرة بين زوجي وابنتي. أردت رؤيتهما قبل وفاتي، والآخر...
صمتت لوهلة وأحنت رأسها دامعة، قبل أن ترفعه قائلة:
— الآخر كان أنتِ. لا أدري بأي وجه أجرؤ على طلب أمر كهذا منك، ولكن...

أردت أن تسامحيني.
لا تزال كلماتك في ذلك اليوم عالقة في ذهني، ولا أزال أذكر ما قلتِه قبل خروجك من المنزل باحثة عن أختك.

وكلما راجعت تلك العبارة أيقنت أن ما حدث معي كان عقابًا على ما فعلته، ليس فقط ما فعلته بأختك وبك، بل أيضًا...
غصة ربطت لسانها قبل أن تجهش بالبكاء:
— بل أيضًا ما فعلته بأختي...
ربتت دنيا على كتف آسيه بحنو، ثم قالت:
— لقد سامحتك من أعماق قلبي.
رفعت آسيه رأسها غير مصدقة ما سمعته. بدا الذهول على ملامحها قبل أن تحني رأسها خجلًا. فما فعلته، رغم طمعها في اغتفاره، لم تتوقع أن يُغتفر. طيبة من آذته وقدرته على مسامحتها رغم بشاعة ما فعلته به جعلتاها تخجل من نفسها.

ورغم ذلك الخجل، بدا جليًا أن هناك أمرًا آخر أرادت التحدث عنه، طلبًا آخر لم تجرؤ على التفوه به، لكن رغبتها فيه كانت واضحة.

لاحظت دنيا ذلك فسألتها عن الأمر، وبعد إصرارها وإلحاحها أخبرتها بما كان خجلها يكتمه.
— في الحقيقة أنا... أتمنى أن يسامحني زوجي وابنتي أيضًا. حتى إن رفضا العودة لتوديعي، أريد فقط أن يسامحاني. أقصد، لو كان بإمكانك أن...
أعلم أنه لا يحق لي هذا الطلب، ولكن...
فهمت دنيا ما كانت آسيه تلمح إليه، فاعتذرت قائلة:

— أتمنى لو كان بإمكاني تلبية طلبك، ولكن... أنا أبحث الآن عن مكان خارج البلاد أكمل فيه دراستي الجامعية، والمكان الذي ذكرتِه لن يناسبني، لذا...
قاطعتها آسيه بإلحاح:
— لا تشغلي بالك بالأموال، سأتكفل بكل ما سيحتاجه الأمر. فأنا لم أعد أملك سوى المال. أرجوكِ وافقي، سيكون هذا آخر طلب لي.
ذكر آسيه للتكاليف أعاد إلى دنيا ذكرى قاسية، ذكرى لم ترد التفكير فيها الآن. أرادت رفض طلبها، لولا أن الأخيرة تصرفت معها على أساس أنها وافقت، مما جعل دنيا توافق خشية كسر خاطر خالتها.

وإن كانت الأموال لن تشكل عائقًا أمام دنيا، فإن اختيار تلك الكلية الأشهر عالميًا لم يكن قرارًا سهلًا.

لم تكن هارفارد تهتم بالأموال فقط، بل بمستوى طلابها وكل ما يتعلق بهم؛ كانت تهتم بكل تفصيلة تخصهم.

قدمت دنيا طلب الانضمام إلى كلية هارفارد عبر نظام تقديم الطلبات لكليات الطب الأمريكية:

American Medical College" "Application"

وبقيت آسيه في منزلها بالرباط على أمل عودة زوجها وابنتها بعد معرفتهما بأمرها، بينما بدأت دنيا تجهز لسفرها بعد قبولها في الكلية.

في البداية اعتقدت أن المكان لن يناسبها، لكنها فكرت فيما قالته خالتها وفي ما توصلت إليه هي نفسها من تقدم، مما جعلها تدرك أن لديها كل المقومات اللازمة للانضمام إلى كلية كهذه.
إذًا، سيكون هذا المكان الذي ستبدأ فيه حياة جديدة مع علاء. هناك سيتزوجان، وهناك سيستقران، وهناك سيدعمان بعضهما بعضًا.
هذا ما كانت دنيا تفكر فيه بعد اكتمال التجهيزات ووصولها إلى المطار.
ساعات قليلة فقط، وستسافر إلى محطة جديدة من حياتها.

كانت غارقة في التفكير في كل هذه الأمور، شاردة الذهن. وقد مر وقت غير قصير ولم يصل علاء بعد.
فكرت في الاتصال به، لكنها تراجعت.
لا بد أنه عالق في زحمة سير أو ما شابه. ستنتظره قليلًا بعد.
استأنفت تأملها، مفكرة في حياتهما معًا.
بدا كل شيء جميلًا إلى حد مرعب. لم تعتد كل هذا القدر من الفرح، لكنها سرعان ما ألفته، ولم تفكر في أي شيء قد يفسد تلك السعادة.

رن هاتفها.
ظهر رقم علاء على الشاشة.
المتصل علاء...
لكن الصوت الذي سمعته كان لشخص آخر.

ها هو القدر يجهز لها مفاجأة أخرى، يدمر آمالها بمكالمة واحدة، ويخالف توقعاتها، ويحول ما بنته إلى رميم.
— صاحب الهاتف تعرض لحادث، وهو الآن في غرفة العمليات يصارع الموت. كان هذا الرقم آخر من اتصل به. هو الآن في مستشفى مولاي يوسف.

— يُرجى من السادة الركاب المتجهين إلى بوسطن التوجه إلى بوابة الصعود، فقد بدأ الآن النداء الأخير للرحلة.
كان المكان يضج بالأصوات. صوت المذيع يرن في رأسها، وصوت الرجل على الهاتف يرن في الجهة الأخرى.
مرت لحظات لم تستطع خلالها استيعاب ما يحدث. وبعد فترة بقيت فيها متسمرة في مكانها، تتلاطم الأمواج الصوتية داخل رأسها، أدركت حقيقة ما يجري.
استرجعت الكلمات التي سمعتها عبر الهاتف، وعادت أدراجها على الفور.
عادت مسرعة، ونبضات قلبها تكاد تصل إلى مسامع كل من يمر بجانبها.

كانت خائفة.

هل سيحل بعلاء ما حل بمن قبله؟
سؤال واحد ظل يتردد في ذهنها،
وقضت وقتًا طويلًا دون أن تجد له
جوابًا.
وصلت إلى المستشفى بعد هنيهة، وكان
علاء لا يزال في غرفة العمليات.
وقوفها هناك، منتظرة خبرًا من الأطباء
بعد انتهاء العملية، أعاد إليها ذكرى
مؤلمة. كل ما يحدث الآن تشعر أنها
سبق أن عاشته، لكنها تخشى تشابه
النهايات.
كانت أمام خيارين، وتتمنى ثانيهما:
إما أن تدفن كل آمالها وطموحاتها في
ذلك المكان،
أو تواصل سيرها نحو حلمها برفقة
حبها.

بعد أن كادت تلامس نجوم أحلامها في السماء، ها هو احتمال إعادتها إلى القاع الذي خرجت منه بصعوبة يدمر كل ما بنته.

ما يكسر الإنسان ليس تتالي مصائبه، بل مجيء إحداها فجأة وهو في ذروة سعادته.

خرج الطبيب من غرفة العمليات حاملًا خبرًا سبق أن أعلمها به طبيب آخر قبل أكثر من اثني عشر عامًا.

لم ينجُ علاء من ذلك الحادث.

لم تنجح العملية الجراحية، ولم يفلح الأطباء في إنقاذه.

توفي علاء، لكن كلماته بقيت خالدة في أعماق دنيا:

"بعض البشر تهديهم الحياة لنا، لا لنعيش معهم إلى الأبد، بل لينقذونا من محنة كانت لتنهيَنا، يساندوننا حين نكون في أوج ضعفنا، ونجتاز تلك المرحلة الصعبة معهم يدًا بيد. لكن حين نُشفى، يكون دورهم قد انتهى. كانت مهمتهم أن يساعدونا على تخطي ذلك الألم، وأن ينتشلونا من تلك العتمة. وحين تنتهي مهمتهم، لا يمكننا التشبث بمن انتهى دوره في هذه الحياة."

استعادت دنيا عبارة علاء هذه، واستعانت بها على تجاوز خبر موته.

لا يعني ذلك أنها لم تحزن لفقده، لكنها لم تتحطم بالقدر الذي كانت ستتحطم به قبل أعوام لو تلقت خبرًا مشابهًا.

قضت أيامًا في الرباط بعد وفاة علاء، ثم استأنفت رحلتها.
كانت أحداث حياتها تتكرر بنتائج مختلفة دون أن تلاحظ ذلك.
ها قد وصلت إلى مدينة ماساتشوستس حيث كليتها.
في الفترة الأولى بعد وصولها بدأت البحث عن زوج آسيه وابنتها. بحثت عنهما طويلًا ولم تعثر عليهما.
وبعد أن فقدت الأمل، صادفتهما في أحد المطاعم.
بدا السرور على وجهيهما لرؤيتها، والاستياء في الوقت نفسه.
بدأت تحاول إقناعهما بالعودة إلى آسيه وتوديعها، لكنهما رفضا الأمر رفضًا قاطعًا.

ظلت مصرة على إقناعهما، وبعد
محاولات كثيرة وافقا، إذ أدركا أن دنيا
أولى منهما بالحقد على آسيه، ومع ذلك
سامحتها على كل ما فعلته بها.
فكيف لهما أن يرفضا العودة لتوديعها؟
عاد كل من حلمي وقمر إلى الرباط.
كانت آسيه لا تزال على قيد الحياة
آنذاك، لكنها توفيت بعد أيام قليلة.
اتصلا بدنيا لشكرها.
فلولاها لتوفيت آسيه قبل أن ينالا فرصة
مسامحتها، وربما كان ذلك سيبقى عذابًا
لهما حتى بعد موتها.
لم تدر دنيا إن كان عليها أن تحزن لوفاة
خالتها، أم أن تفرح لأنها رحلت ميتة
هانئة بعد أن سامحها زوجها وابنتها.
ها هي الآن تلقي نظرة على شريط
حياتها.

تبدأه من أمها، وتستعيد كل الأحداث
التي مرت بها، وكل ما عاشته، لكنها
تنظر إليه هذه المرة من زاوية مختلفة.
الآن لم تعد تتأثر حين تتذكر من فقدتهم.
لا تنهار حين تسترجع ذكرياتها القاسية.
فهل يعني ذلك أنها شفيت؟

لا.
ليس بعد.
لقد فقدت كل من علقت بهم قلبها.
لكنها الآن...
قررت أن تتعلق بمن لا يموت.
لا يخذل.
ولا يخدع.
ولا يترك.
فالأمان معه أبدي.
والطمأنينة بقربه لا نهاية لها.

كانت تحدثه في صلاتها، ويحدثها بآياته.
نسجت من تلك العلاقة عالمًا خاصًا بها،
حاكت الطمأنينة من خيوطه،
واستشعرت السعادة في نفحاته.

كانت تقيم معها فتاتان في ذات الغرفة؛ هارلين وكريستينا. كانتا تمضيان أغلب وقتهما في الحفلات والسهرات والشرب، حتى لم تعودا تجدَان وقتًا للدراسة، بينما بقيت هي في عالمها ذاك، ونور غريب يشع من وجهها، وابتسامة نيرة لا تفارق ثغرها. تقرأ صفحات القرآن بنهم، وتجد بين ثناياها في كل مرة الشعور المطمئن ذاته. هكذا كانت تقضي أوقات فراغها، قسمت وقتها بين الدوام والمذاكرة والجلوس في محرابها ذاك، زاوية من تلك الغرفة حوت عالمًا رغم ضيقها.

لم تكن هارلين وكريستينا تلقيان لها بالًا في البداية، لكن الفضول دفعهما فيما بعد لاكتشاف ما كانت منشغلة به. كانتا تسترقان السمع لقراءتها، فتجدان فيها طمأنينة تجهلان مصدرها، ومرهمًا لجروحهما.

لاحظت دنيا انتباههما لما تفعله،
ورغبتهما في التعرف عليه أكثر.

كانت سعيدة بذلك، فبدأت تخبرهما عن كل ما تشعر به في مكانها ذاك، وعن هذا العالم الذي اكتفت به، وعن كل ما تعرفه عنه.

بدا الأمر ممتعًا أن تجد من يود اكتشاف دينها، ومن قد يقرر اعتناقه بعد حديثها له عنه.

بعد فترة قاربت العامين أو الثلاثة، قررت كل من كريستينا وهارلين اعتناق دين دنيا، التي أصبحت أقرب صديقاتهما.

كنّ ثلاثيًا رائعًا متناسقًا، وأصبحن يقضين أغلب الوقت معًا، ويخططن سويًا لما سيفعلنه في المستقبل. كنّ يخططن للحج معًا بعد انتهائهن من فترة التكوين.

بعد إكمال دراستهن في الكلية، كان عليهن السفر لقضاء فترة التكوين، التي ستكون آخر ما يفصلهن عن امتهان الطب.
كنّ يرسمن أحلامًا وردية، أجمل ما فيها إمكانية تحقيقها.
وبينما كنّ يتجهزن للسفر، تعرضت دنيا لحادث سير، حادث كلفها عامًا من عمرها وهي في غياب تام.
بقيت في غيبوبة طيلة ذلك العام، ثم عادت إلى وعيها في ذلك اليوم.

استيقظت معتقدة أن الحادث كان يوم أمس، قبل أن يفاجئها الطبيب بالحقيقة الصادمة.

لقد قضت عامًا بأكمله في ذلك المكان، تعيش على الأجهزة.
فوجئت بذلك الخبر، لكنها تصالحت معه.
خرجت من المستشفى بعد انتهاء فترة علاجها.
وفي يوم خروجها منه رأت شيئًا أعادها إلى مشهد لم تعتقد أنها لا تزال تذكره.
كانت كل من المرضى برفقة أحد أفراد عائلته للاعتناء به والاطمئنان على حاله، إلا هي.
أعادها ذلك إلى مشهد بعيد في تمارة، حين عادت طفلة من حادث اختطاف، فلم تجد من يعانقها بعد عودتها منه، كما حدث مع بقية الأطفال.

تدحرجت دمعة حنين على وجنتها قبل أن تقول مبتسمة:
"ليس بعد الآن."

هي الآن ليست تلك الطفلة، بل أصبحت أقوى، وأنضج، وأكثر قدرة على التجاهل، وعلى التمسك، وعلى الصمود رغم أي شيء.
سافرت إلى السعودية، وقضت فترة تكوينها في مقر التكوين هناك (الملك فيصل)، وهناك التقت بصديقتيها مجددًا. تفهمت تصرفهما وعدم انتظارهما لها، كما تعرفت على شخص آخر هناك.

ضياء.
شخص جعلها تشبه الكثير به، فتنسجم معه. أتاحت لها فترة التكوين أن تتعرف عليه أكثر، وها هي تتزوجه بعد امتهانها مهنة الطب، وقد تم تعيينها جراحة عامة.
بعد كل ما مرت به، وكل ما خسرته، ها هي الحياة تعوضها، لا بتحقيق حلمها فقط، بل بمنحها عائلة.
أنجبت من ضياء ابنتها نور، ونفذت ما خططت له مع صديقتيها.
حجت معهما برفقة عائلتها وزوجيهما.
تفانت في عملها حتى حصلت على جائزة أفضل جراح عام لذلك العام.

غدًا سيكون حفل استلامها للجائزة، وها هي الليلة تُمعن النظر في النجوم المتلألئة، محتضنة ابنتها نور، التي أكملت ربيعها الثالث منذ أيام فقط.
بصوت بريء حوى ما في الكون من رقة، وبحروف لم يصلح نطقها بعد، سألتها ابنتها:
ـ ماما... هل باستطاعتنا الوصول إلى القمر؟

أعادها سؤال نور إلى ذكرى جميلة بعيدة، ربما كانت أجمل ما احتفظت به من ذكريات. سؤال هذه الطفلة الآن يذكرها بسؤال طفلة أخرى تعرفها جيدًا:
"هل سأكون أنا تلك الدمية التي فرضت عليها الظروف أن تكون قوية؟"
أجل.
هكذا أجابت ابنتها، قبل أن تكمل وهي تحتضنها أكثر:
"لكن بعد الكثيير."
دنيا، على المنبر أمام الكاميرات، ممسكة بالمايك، وعلى يمينها وضعت الجائزة، تقول:

"أهدي نجاحي هذا لكل من ساندني يومًا، ولكل من آمن بي وبأحلامي، ولكل من شجعني على النهوض بعد وقوعي.

نجاحي اليوم ليس نجاحًا في الوصول إلى هدف أو استلام جائزة، بل نجاح في التعافي، وفي النهوض بقوة أكبر، وفي النجاة، وفي القدرة على الصمود.

وفي هذا اليوم أود أن أقول شيئًا لشخص كان يتمنى هذه اللحظة أكثر مني، لمن علمني كيف أحلم، وكيف أسعى لتحقيق ما أحلم به، لأمي، وإن لم يكن باستطاعتها سماعي الآن.

أمي..."
تلألأت دمعة في مقلتيها مع نطقها لتلك الكلمة.
"لقد وصلت ابنتك يا أمي.
وصلت إلى القمر رغم أسواره.
كانت طويلة شاهقة، ولم يكن اجتيازها بالأمر السهل، لكنني وصلت...
وصلت رغم الأسوار."

النهاية

بقلم مريم محمد المختار نيملان

2025/02/21

2026/06/12

رواية

رُغم الأسوار



في الدنيا جحيم .. و هو ما تعيشه دنيا

بقلم الكاتبة:

مريم محمد المختار